الباهرة

رجاء بكريّة
الباهرة
2015

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس
0097022340035

www.aljundi.biz

لوحة الغلاف: بريشة الروائي الفنّان "مروان عبد العال"

جميع حقوق الطبع محفوظة ، ولا يسمح بإعادة إصدار أو طباعة أو ترجمة هذا الكتاب أو جزء منه دون إذن أو موافقة الناشر.

All rights reserved no part of this book may be reproduced stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without .prior permission in writing of the publisher

مجموعة قصصية

رجاء بكريّة

الباهرة

دار الجندي للنشر والتوزيع

فِي ذاتِ السّاعةِ، وفي كلِّ وقت..

إلى شاهرَ يسْكُنُني ملءَ وَجَعْ! إليهِ الآن وَبَعدْ!

رجاء

سَفَرٌ في خُرافةِ كلمة.

لا مناص من التنويه، حفاظا على مصداقيّة العمل، أنّ بعض نصوص هذه المجموعة مرّ بصياغة مجدّدة، فاختلف عن ظهوره الأوّل عبر صفحات المواقع والجرائد. ما كان لذلك أن يحدث لولا دواعي نضوج تجتاحنا على مهل، أو غفلة وتطالب النّص بتبديل ملابسهِ وأحذيتِهِ بغيرها أجمل!

من الباهرة إلى وتتكم

محبَّةٌ جمَّة: رجاء

7-10-2014.حيفا

إوزّاتٌ سعيدة

هو .. مونولوج الذّعر يلاحِقُ قلبَها ، منذ رأتهُ

يُلاحِقُ رَدِفَي جَارتِها «هَمْس» ، حدّ أنّ التمتمة أصبحت بين أسنانها رديفُ مسبّةٍ، تتهجّى غيظها تحتَ عينيهِ الغائبتين، بكثيرٍ من الغيظ، «بدأتَ تحقّر شوقي وتتنمرد، لأن قلبي نَبَضَ في كتفي..لا تبرر موقفك يا رغيد؛ لأنّي سأكرهك، وأنت تعرف أنّ كراهيتي تعني، عينهُ، الهجر! هجرك دون التفات لتحريض أمك ونَمُّ الجيران تحت إبطك. كُنْ واثقاً أنّ خُفّ البيت لن ينتظرك ثانيةً عند السلّمة الأولى متخليا عن بُكلته. سيرحل معي إلى بيت لا يسكن فيه واحد رجولته في صدر أمّه. تعرف جيّدا أنّني جادة فيما أقول.

لا تتعب روحك يا سيدي، لن يُثِرنَ غيرتي نساءك الكثر. أجل أعترف، مسحتُ بصري بقائمة أسمائهن داخل الرزنامة الكحلية. يبدو على خطأ، تركتَها مستلقية تحت لامبة المكتب، ودُهشت! لم تحدّد الألوان الباهتة بالذات لونا لأشيائك الحميمية؟ هل يشبه عاجهن المختبىء دائما في مكان لا أعرفه؟ كلّما تلوّينَ دلالا تلونت خيانتك. لا أعرف كيف لا

تَشبع من معاقرة الوقت مع فساتين النساء. وكيف يهندِسُكَ الزمن بهذا القدر من الهذر؟!

ثلاث نساء دخلن دون موعدٍ مُسبق. لم أسأل كيف تستقبل حالات استثنائية بهذا الزخم بضربة واحدة. لم أطلعهن على هويتي. حين اصطففن على كنبة الانتظار؛ مثل سربِ حمام سعيد، أحسستُ أنني الغريبة الوحيدة. ضحكتُ من المرأة الّتي تحلف لها، كلّ صباح، بشاربيك أنّها أنثاك الأجمل وتخرج. وتساءلت كم زوج من الشوارب يجب أن تطلق في وجهك لتوزعها على حلفانك بالتساوي.

وشوشت الأولى صديقاتها حين لَحَتْني أَحتلُّ الكنبة الداخلية، بعيدة عنهن مثل بطّة قبيحة: تُرى، كيف تسللت إلى هناك؛ سيّد رغيد لا يستظرف أن يعتدوا على كرسيّه. زمّت الثانية أطرافها اللحيمة، «تبدو وقحة». أمّا الثالثة، فقذفت إلى فم لصيقتها حصوة «قليلة ذوق»، وأسكتتها.

فكّرت أشجان في سرّها، ماذا لو أعلنت أنّها الزوجة غير المتوقعة؟ سيُفلجنَ، دون شك، ومعهنَّ زوجها. ما الّذي أتى بها إليه دون اتّفاق مسبق. لا تعرف، لكنّها قوّة لا تُقاوَم أمسكتها من الإسفنجة الواقية على كتفيها، وقادتها إليه.

رغيد مبعثر هذه الأيام ولو أنّها فهمت أن تراثه القومي مستفحلا فيه هكذا، لكفّت عن النبش في أوراقه. تأتي النساء إليه رزماً؛ مثل النقود.

همستْ لِعُبِّ قلبها على مضض، وأضافت «زوجي العزيز لديه مشكلة، يُحبُّ الأشياء رزمًا مهما كنّ». واستنتجت؛ دون جهد «لن يتنازل ولو هجرتُهُ». ضربتْ على جبينها وتنحنحت. أصغت النسوة بحذر لخلجاتها، تهدّد هجومهنَّ المنظم على الرجل الوسيم، زوجها. لماذا لا ترقص لهنّ رقصة الذئب لتُطمئِنَ نفوسهن؟ أو جائز أن تَخَلِّيها عن مرتبة المنافسة في هذه الوليمة الفاسدة أفضل.

لم تفكر طويلا حين لَمّت كاميليا فستانها الكرزي، وخرجت بقامةِ زرافةٍ رشيقةٍ. خطواتها الراقصة، زفّة الحقد اليومية الّتي تمنحها النساء لظهورها العابر في الصالونات الرسميّة واللاهية على حدّ سواء. منحت هواجسها للشارع، وهي تجتاز البوابة الرئيسية؛ سريعا ما أمكن وأصغت لشخير الملل تحت القطعة التي تحتضن رأسها أثناء النوم.

قلب رغيد استبدل النبض بالشخير، «واضح»، تشقلبت الكلمة بين أسنانها، «منذ علف حظيرته بإوزّات لحيمة كتلك». أجل، «لم تخطىء، قلبه رَهَنَ حسّه لمخلوقات الحظيرة المرعبة، وحقيقي لا يتقن غير أصوات المعاء والخوار، وما جاء على نهجها». هزّت رأسها هزّاتٍ عنيفة كادت تصدمها بالرؤوس الّتي تحيطها في مركز المدينة. ومن حين لآخر تتوقّف وتستدير إلى الخلف، كأنّها بانتظار رفيق درب. قاست المسافة الّتي عبرتها بعينين مشكّكتين، أحقّاً اجتازت هذه المسافة بنَفَسٍ واحد؟!

ارتبكت زهرات الكاميليا على فستانها الواسع وهي تجتاز شجرة الموز العملاقة المُعَنِّقَة في منتصف الساحة وتتململ تحت نظرات الرجل الأسمر الّتي تثقب ظهرَها. وخيّل إِلَيها، ربّما سيمدُّ يده مباشرة إليها ويضَمِّمُها. كان يبيع أطواق ياسمين تتضوع بروائح الحبّ الأوّل. لا تتذكر تماما رائحته، ولكنّها لا تنسى عطر رغيد حين مسّ إبهامه خدّها أوّل قبلة. ذلك اليوم لم تقترب من حنفية الماء بل نامت دون أن تغتسل. استَبْقَتْهَا يوما كاملا، ولو لم تخدعها المخدّة حين كفأت وجهها ودعكته انتشاء بمسحة سبّابته، لَهَنِئَت يوما آخر بوصالها الوهمي.

لم يحوّل بائع الياسمين الأسمر نظراته عن زهراتها، فوجئت به تماما عند منعطف العودة، مقابل ساحة الحناطير ينحني أمامها، ويهمس: أنت ساحرة كزهرات الكاميليا المتفتحة على ساقيك يا سيّدتي، هل تقبلين هذا الطوق متوِّجًا حُسنكِ حُسنًا لهذا اليوم؟!

تلعثمت، واحمرّت بشدّة. تراكمت فردة حذائها الأولى فوق الثانية، وكادت تسقط حين أحاطها ياسمينَهُ. أخذت الطوق وشكرته على عجل. تعثرت قليلا وهي تتخلص من نظرات الناس حولها. رأسها عَرِقت بكلام منْ رآها بُرقوقيّة، نقيض الطوق الّذي تركته يتدلى زاهياً حول ابتسامتها الضائعة: لو أن رغيد مكانها وجاءت إليه بائعة القرنفل تلك، قرب دكان الزهرات، لضمّها مباشرة إلى سرب الإوزّ المرابط أمام غرفته. تنهَّدت، وأسقطت ابتسامة ليلكيّة أسفل شفتها.

ارتفعت جلبة المسافرين حول سيّارات الأجرة. ساحة الحناطير مزدحمة اليوم أكثر من العادة، وبائع الفلافل، أبي صابر، نفذت أقراصه أمام تدافع الخلق، الهاجم مثل غارةٍ. تسمعه يستحثُّ صبيّة كي يأتي بسحّارة الخبز؛ هكذا يسميها.

لسبب ما انشرحت، وهي تلاحظ انشغال الناس بهمومهم الصغيرة. رغيد إذن ليس أصعب همٍّ ألمّ بها، ويمكن أن تزيحه عنها، هكذا، كما تزيح خصلة الشعر اللولبية التي تقفزُ فوق جبينها. أمسكت طرفها الأشقر، وردّتها برفق إلى الوراء. نظرت إلى وجهها في مرآة سيارة مرّت بمُحاذاتِهَا، فوجدته مشرّبا بعشق سرّي، لمن؟ تساءلت بخفر، لبائع الياسمين؟ للحياة؟ ربّما. بدا جميلا أكثر مما اعتقدت، كأنّما تراه للمرّة الأولى منذ زمن بعيد. أهي مُلفتة مثل المرأة الّتِي تقلّدها في المرآة؟ استنتجت في الحال، وقررت، «يجب أن تسلك هذا الطريق مرّة واحدة في الأسبوع على الأقل»، ثمّ لاطفت زهر الكاميليا بخنصرها الدقيقة، «ليظلّ وجهها جميلا هكذا».

لم تتنبه إلى الوقت الّذي مّر وهي واقفة، تتأمل شكلها وتهمس لأزهار فستانها. داعب وجهها الهواء حين هبّت من غفلتها وفهمت أنّها لا تزال بين الناس مأخوذة بِجَلَبَتِهم. هل تعود إلى المكتب؟ هوَ لا يبعد كثيرا عن موقف السيارات. ولن يكون ثمّة مفر، سوف تحاذي بائع الياسمين مرّة أخرى، ابتسمت للفكرة. تذكرت عينيهِ، «لقد رسمت لروحها غدا أجمل». ستستقلّ سيّارة أجرة إلى البيت، ابتسمت ثانية مثل

طفلة تحلم بلعبة تحبّها، وأضافت، وسوف تمرّ من أمام بائع الياسمين، وتراه من حيث لا يراها. مرّت السيّارة من أمامه، ورأته من بعيد يتابعها، لكن دون أن تمتلىء بعذوبة بنفسجه تماما. لا بأس، لقد فسّر لها بنفسجه، على الأقل. لكن، لماذا نظر سرب الأوزّ إليها بحقد؟! على اي حال هو سبب كاف لإحساسها الثمل بالسعادة.

الشوارع الممتدة على أجساد الناس، أغرب ما فهمته عن مدينتها في ذلك اليوم. هنا، الأجساد امتداد للشوارع، كيف أحبّت أن تجهل؟ وهنا لا شوارع عاطلة عن الأكتاف المتلاصقة. عبست قليلا، حين اقتربت شجرة التفاح المتعانقة منها. شكلها المتداخل يوهم من يراها أنّ عائلات سعيدة تعيش خلفها. وكل ما خلفها بيوت واسعة بأسوار وأبواب مذهّبة وحدائق تغني لها عصافير ملوّنة. حنّت، دون سبب، لأزقّة عكا. هناك كبرت، وكانت أمام العتبة العالية أشدّ سعادة ورغبة في الانطلاق، مثلها اليوم أمام بائع الياسمين. شقيّة، بلا حدود، هكذا تصفها أمّها، حين تلح على طفولتها.

وماذا أيضا؟ لم ترافق غير الأولاد؛ البنات لعبن لعبة عريس وعروس. هي تسللت إلى الأعراس؛ كي ترى المشاهد حيّةً. لم يعجبها ما أعجب الآخرين. انكمشت خصل شعرها الفوضوية. لحظات قليلة ستمر، وتجلس بعدها أمام اسطوانة رغيد اليومية ومثل كلّ يوم سيقلب رأسها بما يتناقله أصدقاءه من بدع حول أسرار الذباب الأزرق. «يختطفه رجالات

السياسة». وسوف يتباهى، «كي يخيطوا من أجنحته ربطات ذهبية لأعناقهم» كأن المعلومة اكتشافه الشخصي. قد تغضب، ككلّ مرّة، وتشتمّ خرافات أصدقائه. وقد.. فكّرتْ بخبث، تسأله إذا كان ريش الإوزّات اللحيمة يصلح لابتكار يقترحه على رجال الأعمال أمثاله. وقد يسألها ماذا تعني؟ ستبتسم، وتترك خيالها يسبح خلف إوزّات زوجها النزيه!!

قلبي يدق بعنف ويوشك على خيانتي، سيغادرني ويترك مكانه جرابا تمتلئ بالوحل والأوساخ، فمن سينبض بي عنه؟ تشنجت، وهو يتهدّج ويقترب من أنفاسها. يمرر أصابعه الرشيقة فوق كتفها العارية ويحاول أن يكون لها وحسب. لكنّ الإوزات الثلاث لا تغادر مجاديف عينيه. هي لا تلمح غير قمصانهن القصيرة على ركبتيه. اختفت رائحة العطرِ الّذي تحبّه تحت ياقته المدوّرة، وتسللت مغامراته نافذة إلى أعماقها.

حين جذب نفسه إليها، جذبت نفسها هي أيضا، بقسوة منه، وهمست بانسحاق: أرجوك.. لا تقترب.. أرجوك؛ ستقفز الإوزّات من هناك، وأشارت إلى عينيه، وسوف تلطخ أزهار فستاني بالوحل. وإذّاك تأمّلها رغيد بشكٍ، وأسرع إلى مرآة الحمّام كي يتأمل شكل الإوزات الّتي سحرت زوجته لهذا الحدِّ في عينيه! حين عاد عثر في الصالة على فستان زوجته ممزقا بدونها.

الصُّندُوقَة (1)

(1) ألقصة الفائزة بتمثيل الأدب النسائي الفلسطيني في مؤتمر نساء حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي انعقد في مارس 1997 في مارسيليا/ فرنسا. والمترجمة لخمس لغات. الإنجليزيّة، الفرنسيّة، الإيطاليّة، العبريّة، والألمانيّة.

"لقد قلت لنفسي بأنني عشت أكثر من اللازم في الكذب وخيال الظل بحيث لن يعوزني الانتباه إلى أنني تورطت في قضية قذرة. وعليه فقد قررت أن أضاعف يقظتي وأن احتفظ بأوراق اللعب الضرورية لخروج مشرف أو هروب مفاجئ. وكان لا بد أن أفحص حالة الأمكنة والشخصيات".

(الطاهر بن جلون)

توقعتُ أن أراه يوما ما متلبّسا في شروده، لكن ليس يوم الثّلاثاء؛ أكثر أيّامي فوضى وصعوبة، وليس بقرب المكان الوحيد الذي أزوره ما يزيد على ثلاث مرات أسبوعيا؛ حيث العلبة الحديدية الصغيرة ذات الثُّقب المعتم، ملتوٍ عند آخرِهِ. ثقب ضيّق، تستجيبُ حُزوزَهُ الفولاذيّة لمفتاحٍ فضيّ معلّقٍ منذ سنينَ بعيدة حول عنقي. خلعت طوقَ خرزاتِهِ، غالبا، عليّ جدّتي لأمّي بعد صرخة الولادة الأولى. لا أذكر تماما، لكن يجوز أنّ الأمور اختلطت عليّ، وأنّه أول رجل شَعَطَ حروف أعضائي الأولى قدّمها إليّ؛ فأضاء بعدها بريقاً لا زال يفتنني في عَيني اليمنى. وكلَّما صافحتْ ظلالي مرآة الحائط القديمة ارتعدُ من غزَّةِ أَلَقِهِ قلبي.

لا أرغب برؤية أيٍّ من صور الماضي الكالحة أو الحاضر المشوشة، قريبا من هذا المكان، خوفا من عواقب صدفة قد تصيرُ إلى مصيدة، يضبطني على بابها كلّ من يعرف أنَّني مغرمة بالمفاجآت، فأفقد صلتي بالعالم للأبد. ذلك لأن تلك الصندوقة الصغيرة يعتبرها من يعرفني علامة مميِّزة لوجودي،

وفقط من يرى لهفتي والصندوقة الصغيرة تغامز المفتاح بكلمة السر وهو معلق بعنقي سيفهم ما أعني. وأن تصطدم بلاهتي خلف النظارات السوداء، ومقود السيارة المرتعد ببلاهة شاهر المتشكِّكة والفزِعة، بعدساتهِ الطبية ذات الإطار الأسود ومقود سيارته المتخلي عن كل علاقة له بطابور السيارات الطويل، وطابور الشتائم، واستغاثات الزامور العصبي أمر لم يرد بالحسبان .

تكهربت خطوط الشارع وعقول الناس بلحظة الصدام العشوائي تلك. شاهر الزفت وفي هذا اليوم، ببساطة أمر غير معقول. قبل بضعة أشهر فقط كان حكاية ولَهٍ وشوق. طوال شهور ظَلَّت صُدفَتَهُ محض حلم مرهق. واليوم بالذات، وكلينا على مفترق السوء والإستياء نتقابل؛ كل متورط مع نفسه، ولا يريد أن يتراجع عن قراره السفيه «أنت هناك وأنا هناك ويا دار صيري دارين».

لكن شاهر منذ صارت دارنا داريْن لم يتركني بحالي، صار جزءاً من الوسادة والملاءة والضوء الأحمر الذي لم يشعل سوى عتمة لياليا الساخنة، وجزءا من الحلم والكلمات التي أرسلها بالبريد المستعجل لعنوان خيالي، وغرضا من الأغراض التي تنقص البيت ويجب أن أشتريها من أقرب حانوت أو صيدلية، حتى اقتنعت أنه كان، لا بدّ، يتركُ شيئا منه في كل مرة يأتي لزيارتي. وفي ساعات غيابي تعارفت تلك الأشياء وقررت أن تصير شاهراً آخر يناكدني، ويفسد عليَّ وجودي. يذكِّرُنِي

بِجُنونِهِ ومجون أصابعه الرشيقة، الّتي لا أذكر أنها نسيت وهو فِي أقصى لحظات نشوته أن تذكرني بأنوثتي، وتُشبعَ كلّ شبر يضج فيها. لأعيد النظر في موقفي، فيرضخ هو ويحذو حذوي. لقد جعل من أصابع يديه مفاتيح للأقفال المغلقة والصندوقة الحديدية بالذات التي استجابت شيفرتها لإحدى أصابعه.

لم أدرِ كيف، ولم يكن يعنيني أن أعرف، إذ كنتُ منساقة لغرائبية تلك العلاقة التي انبثقت تحت لامبة كهرباء محترقة؛ جاء يكشف عن عطبها فعطبني أنا بناره واشتعل بدخاني.

أمر تلك الألفة السريعة صعقتني، فلم يحدث أن استجبتُ لرجل من قبل بتلك السرعة وبتلك الوحشية. حائط الجليد ذاب عند أقدام الباب المنفرج نصف فرجة. شعرتُ مع ترددها أنّ أصابع يديه تتحدث وأنّني مضطرة للإصغاء إلى حديثها، ولو استدعى الأمر إرغامه على السماح لي بذلك، لكن الحديث استحال همسا.. لغطا.. ضياعا.. رغبة.. صراخا. مشى مشى ولم يتوقف، حتى مشت فينا سحب العتمة.

للحظة نسينا أننا في شارع. زجاج النظارة السوداء يتحداه. إنه بلا شك نسي شكلي، ولا بدّ أنّ تعابيره المنقبضة الواضحة خلف الزجاج الأبيض تبحث عن شيء ما، ربّما هوية المرأة الواقفة في مواجهته تستفزه بزعيق سيارتها الرمادية، أين رأى هذا اللون قبل الآن؟ ضيق نظراته تتَّسِعُ أمامها تفاصيل الأمس، أتكون هي؟ بوق السيارة صرخ ثانية، أرادت أن

يفسح لها المجال كي تنخرط بالجهة اليمنى للشارع، وهو كأبلهٍ لا يفهم أنَّهَا الصُّدفة وحدها خلقت هذا الصدام وأنها لا تعاكسه، عبثا لن يفهم ولن يتذكر. للمرّةِ الثالثة فحّ بوق السيارة بوجهه ولم يحرك ساكنا، ظل يبحث عن شيء لا تفهمه.

ضاقت نظراته فجأة وجمدت ملامحه؛ كأنما استفاق من حلم. تدحرج بين حشود السيَّاراتِ المتزاحمة على المقدِّمة. اندفعتْ في إِثرِهِ مشدودة لقوة غريبة تجذبها، ولا تملك ردعها. صار همُّها أن تجده لتشتمه أو تبصق بوجهه، أو أن تفعل أيَّ شيء آخر يهدئ من روعها ويمنحها قليلا من الكبرياء. المهم أن تفعل شيئا. بصعوبة سيطرت على ارتجاف ساقها فوق دعسة الوقود.. تتجاوز المؤشر في ضوء أحمر.. تستبق السيارات.. تشتم كل من يحاول زجرها ببوق سيارته عن حريَّةِ العبور من جهة لأخرى كأنَّ الشَّارِعَ ملكُ أبيها، تقاتل على كل شبر فيه. حيوان جريح يحاول أن يقتص من قانصٍ أخطأ قلبه واستقر رمحه في عنقه. يجري في كل اتجاه بحثا عن ملامحه فتخونه الوجوه.

لن أرتاح، إلا إذا عثرتُ على وجهك يا شاهر، أين ضعتَ أين؟. استقرَّتْ عيناها فجأة على مؤخَّرَةِ سيّارتِهِ البيضاء، النِّمرة تحفظها عن ظهر قلب. ضغطتْ على الفرامل بقسوة خوف أن تُضِلَّهُ وتقدَمَتِ الهوينى وهي ترتجفُ. أسلمتْ صفحةَ وجهها الكامدةِ لِكَلام عينيه، كان لِشِدَّةِ تَوَتُّرِهِ لا يُقْرَأْ. أسقَطَتْ عَنْهَا الصَّفائحَ السُّودَ لِتَسْتفزَّهُ أكثر، لا أحد، سواها،

يميّزُ عُمقَ ولعه بالحديث الذي تقولُهُ عيناها. لأقلِّ من دقيقة حيثُ استعدّ المؤشِّرُ لِلافراج عَنِ الوقود. أعادت آلصَّفائح آلسّودِ فوق عينيها. كفَّ الكلامُ عنِ التدفق ولم يكفَّ فضولَهَا عنْ شُربِ وُجُومِهِ.

قبلِ أن تمضِي، رأتْ يدًا تشبهُ يدَهَا تمتدُّ عبر الزُّجاجِ، ترتفعُ عَالِياً، وتلوِّحُ لِشَخصٍ شاهر بحرارة لمْ تَفْهَمْهَا. تصفَعُهُ بطريقةٍ عصريَّةٍ، وتختفِي في آخرِ المنعطفِ بينَمَا اعتَلَى الرَّصِيفَ، وَتَرَكَ نَظَرَاتِهِ؛ تضيقُ، تضيقُ وتتذكرْ.

فراشةٌ صفراء

أعني، بجرأة سأحسد نفسي عليها يوما ما، ما تهربا منه عينيك إلى قاع البحر، فمعك لا أرتب أفكاري مرّتين؛ لأنني بسبب التراجع في المرة الثانية. سأدع السحابة الرمادية تتمدد بكسل كتثاؤبات طفل مرتبك تمطر كلام ندائها وترتاح.

منذ شبكتنا الصدفة بنظرة عفوية خاطفة، تناسجت بين أمامكَ وورائي خُيُوط عنكبوتٍ وَعِرَة، أفرزَ جناحُ فراشة صفراء صمغاً عجيباً في عينيّ وزجَّجهما بظاهر المقعد الّذي احتواك. شكل مناكب عنقاء لرجل سحرتني رجولته، وجعلتني أجزم بقدرتهِ الخارقة على احتواء جسد حَرونٍ كجسدي. ابتسم طفل خبيث فيّ. نعس في سذاجته، وسحب خلفه حبل هواجس غيّب أحداث الفيلم الذي جئت لأجل أن افتتن ثانية بروعة أداء فناني الأثير فيه، ريتشارد جير، شبيه رجل خنته في زمني البعيد.

الحقيقة، لم تنبِّهني لانتهاء الفيلم، غيرَ رجَّةِ التصفيقِ الحاد التي غمرتني، وجعلت تتعانق وتلتحم في أهزوجةٍ جنَّدَ لهَا

الحضور كلُّ ما ملك من طاقات خارجةٍ عَنْهُ وعنِّي. استفقتُ إذّاك على قبضة فولاذية، رفيقة الملمس تهز كتفي. شُدِهتُ، انتفضتْ كَتِفي لمرّات لا إرادية متعاقبة، كأنّما تتحلّلُ من أثرِ غُبارٍ عَلِقَ بِهَا من صخب الحشود، أو تنفضُ عنْ رِمْشَيْهَا هلوسات حلم مزعج. وإذّاك رفّ رمشُ عينيَ اليُمنى، مستفسراً من موقع لم تميّزهُ في العتمة. ولم ألمح إذّاك خلاف فقاعة رغوةٍ تكبر كلما فسَّرها اليقين. تورَّطتُ على غير إرادةٍ مني برغبة الأسود السابح في تأمّلاتٍ، كلما اقترب ازدادت هرباً إلى القاع.

على غير توقّعٍ أورق حس الأنثى فيّ رَهِفاً خَجِلاً، وراح يشرب ظمِئاً غموضا لا يشبع، ويلتقي بمواطن انفجاره. تعلّقَ ريقَهُ بانحراف شفتي السّفلى، واسترخى انشداهي بخطوطِ كُمَّشراهُ. خلاف هذه الأبجديّة، لم يُسَائِل ريقَهُ صمتي، ولا أثار أيّ طقسٍ تَعارفيٍّ خارج محاولة كلام تساقَطَت نثراً خائباً. عاينَ قلبي ووشمَ الحُسنِ على عنقي، ولم تُضئ ظلّ ابتسامة بين عينيهِ، فتململتْ كفّي حبيسة قبضة يده. نخرت عظامي برودة صعبة، جعلت تجردني من عصياني تقطيبةً، وغصّة.

قال إنّه شجريّ. قلتُ إنّي عُشبيّة. قال بأن ثورة غضب تشدُّهُ إليّ. قلتُ إنّ رغبة الأسود تقبضني من ياقة أنوثتي، فغلبه الحياء. صمت طويلا ثم انحنى فوق جبيني

وقبلني؛ ببراءة ترنحَ لها المبنى القصيِّ الشاهق أسفل زاوية القلب. انتظرتُ أن يشدَّ جسده لأرشفَ حبقاً يرشح من باطن كفه، فسحبها من تحت شفاهي بقسوةٍ مباغتة. اغتمَّت بَراعِمي مستاءة:

لماذا؟

مكانها ليس هنا.

إذا؟

مشى على رؤوس هفتهِ، وتململ باحثاً عنّي. ذُعِرا نهديَّ، وتراجعت خطوات قلبي. نثر عِطرهُ في كفّ يدي، وشاكستْ كُمَّثراهُ بعنف براعمِي، هشّمها. تخشبت أوصالي وأغرت ببلاهةٍ سكّنت أوجاع الذعر. همس بامتنان: لرحيلكِ نكهة وطن. تفكَّكتُ خلف دخان كلماته جملة مرعوبة، همستُ: بُحَّتُكَ تشبهُ مركباً يغرق.

طواني بين ذراعيه، اعتصرني سحقني. تأوهتُ التذاذا تشهَّيتُهُ طويلاً، ورغبة الأسود تتشاهق شجرا يُرسلُ مع كلِّ تأوُّهٍ ثمرة حتى خرّ بثمرهِ الشجر. لكن الغريب أن عينيه ظلتا تهربان إلى القاع، كلما اندفعتُ لقطف الثمر.

أعني ما يجب أن تفهمه، فلا طاقة لي على احتمال هذا الضياع كلما تسلّلتَ قُبلةً بين شفاهي. لقد نضجَتْ عدوى الرغبة فيّ وزكمت أنفي. وأعدكَ، حين نلتقي، لن تشتعلا شرارتينا في ضوء فانوس أو شمعة، بل في عتمة مطبقة تَرانَا من شقوق النوافذ المنكمشة.

قبل انتصاف الليل بخمس دقائق، دقّتْ حوافر بسطاره الساحة الباطونية. تحرّكَتْ حَذَراً مراعية استغراقي العميق لِمَلاكِ النَّوم، بهذا أوهَمَهُ الصمت. «لا بأس من كذبة عابرة ستيسّر لي متعة استيعاب فواصل أنوثتي»، همستُ لنفسي وأنا أصفق سماعة الهاتف على تعليماتي. «وأظنه خلع بسطاره عند باب العتبة ودخل حافيا»، أعلنتُ لمنامتي. كل ما أرجوه الآن ألا يكون قد ترك ملابسه إلى جانب بسطاره، لئلا تنهار مخيّلة حُلُمي الهش فوق دماغه ودماغي، وتفسد ألق المغامرة على الستائر المتضامنة كجدار واقٍ ضدّ أضواء السيارات العالية. كانت ساكتة تراقب كيف تتنافس حول ناموسيتها الصفراء.

حركة خافتة للبوابة الحديدية العملاقة. طقة واحدة، إثنتان، وشحطات انفصال القفل عن المفتاح تعلن عن المهمة الصعبة، لكنّها ستساعده ما استطاعت. همست بتواطؤ، وهي ترتجف من شدّة الانفعال.

سكون وعتمة هما كل ما يريد ، وهي لا بدّ نائمة، لا يسمع سوى حفيف أنفاسها المسترخية في انتظار لحظة انسحاقها الكارثي. دخل بخفة الهواء ، لم تسمع لجسده صوت ارتطام بالبلاط مثلا. أغلق باب الغرفة السحاب ببطء متناهٍ، لم تفسر سببَ تراجُعِ الكرات الحديدية عن الإستغاثة كما تفعلُ حين تهجم عليها فيَ الصباح. عضَّ طرفَ شفتِهِ السُّفلى لئلا يعكِّرَ تهدج لهاثِهِ هدوء مملكتِه. استرقتِ النظر إليه من بين فرجة عينها اليسرى التي تبقى مفتوحة، وهي مسترسلة لملاك النوم، فوجدته كما توقعت، بجسد حافٍ. اتسعت عيناها بانبهار وانطبقتا بحركة آلية على هول الإكتشاف، لقد تزاحم لعاب حلقها الناشف وسدّ عن قلبها المنتفض أكياس الهواء. أمّا هي فلم تلملم غير بدايات المواء.

الحالة الاولى

اقترب منها تومض عيناه بالتماعات متموّجة الحدّة. حين حاذاها شاهدت زعفلات انفاسه تطيّر السكون. انقذف جانبها وكشف بنفاذ صبر عنها الغطاء. حاول أن يبدو لطيفا ويستجمع شتات أنفاسه، لكن انفعاله

أمسك بزمام الموقف. ثم، ودون انتظار أو توقع، رفرفت قبلاته الحارة فوق تقاسيم وجهها.. انزلقت إلى براعمها الغافية بيسر تفتّحها ميسما وورقة. لفَحتْها نيران شهوتِه، كانت أعلى من أضواء شاحنات الذخيرة على ضفة الشارع. استغاث الميسم، ساح شهده ولم يسمع. بعصبية متناهية فكك أزرار الجسد. بتطير مزّق بعض ملابسها حين خانته يداه. وزّعَ أزرارها على زوايا الغرفة وأخذها بقسوة. كانت تعاريج الجسد القشدي تتجمع أسفنجا رخوا بين ساقيه. تتقلب مناخاته بين عصف ومطر، ويُحدِثُ زلازل أوّاهة الألم.

الحالة الثانية

أغار عاصفة حبلى بالشرر. خُيّل إليها أنَّها بطلة وهميّة في مشهد بانتوميمي عصي على الأداء. أطفأ الذهول نجوماً أضاءت في جسده. انكمش الاسفنج وسكن، واحترق فتيل القنديل تحتَ وهج الجسد. لم يَستبْقِ الفراشة، خبا وانقتل. اهتزّ زجاج النفق، وانكسر، إذ سَمِعَتِ اصطكاكا تحت أسنانها. وكأنما صدر عن امرأة سِواها. شهقت صرخة باهتة نسيت لونها، وخبا وهج البصر. احتضن

القلب انكماش الزهر، وغفا تحت نشوة ووميض شرر. مالت على أذنه تعضها وتهمس: أريد أن أتفتح مرة أخرى. امتص رحيق همسها وحلمتي صدرها المتوهج، وداعب خصلات شعرها الراجفة على سفح صدره، ثمّ سأل: على ماذا؟ واذّاك همست: على بنفسج لا يكبر في قلبك. ضمّ أطراف أناملها على شكل أيقونة مررها فوق خده الشوكية بطيئة، باردة، لتخرفش بصمت الإجابة.

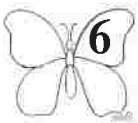

صرير البوابة الحديدية خربط فوضاه طيّرَهُ. قفز من السرير الرفاص متسارعَ الحركات؛ شأن تسارع الثواني. انحشر في ملابسه كيفما اتفق. قبض باليد اليسرى حذاءه وباليمنى وحشة الصمت. دفع نافذة الغرفة الخشبية المطلة على شارع الليل، وتدحرج عبرهُ شأنَ كرة مطاطية، ظلّت تتقافزُ لمسافة بعيدة، وابتلعته العتمة. حين أعلن زامور جرس الباب اقتحاما وشيكا لرجال يحرسون أمن جسدها، قطّبت ما بين شفتيها وزمّت حاجبيها. ضجّت ثرثرة الفراشة، صفراءَ عالقة، لا تزال، بين نهديها. نفخت على رمادها الدقيق، وهمست لنفسها، متوعدّة:

إذن ... كان مخربا!

البَاهِرة

الموج عجوز ثرثار، والدنيا الّتي كانت جميلة قبل أن يتركها جلال ويذهب تبدو كقمر أزرق، والناس مغبرون ومدمنون على الخلل والإنطفاء. لذلك؛ لا يكف النمل الأسود عن حفر خنادقه في أجسادهم. تتوقفُ عند غبار الناس وتفاجيء تلقائيّة تسلله لقاموس عشقها. لا توجد مفردات كثيرة تدلّهت بها لهذا الحد.

ألِأن جلال صادقَهُ؟ يجوز أن حكايتها معه لم تبدأ قبل جلال، ولكنّها تتذكر دائما، أنّ احتقان لونه كان مبررا لفتنة لم تتوقف عن تسجيلها في دفتر الرسم منذ الصِغَر. تطلب إليهم المعلّمة أن يرسموا سماء، فتجلس تحت اخر مقعد في الفصل وترسم ترابا فوق قبر ثمّ تلوّنه بالبنّي والأحمر والأخضر، كل كومة ومستطيلها الخاص. تَزْكُر ورقة فوليو A4 بالكومات الصغيرة القاتمة. ناعمة جدا مثل التراب الذي تقتفي أثره في حاكورة البيت، لتعثر على صغار الخلد وتلاعبهم بين أصابعها وتضحك. حين تبحث عنها معلمة الرسم لا تحتاج لأكثر

من انحناءة خفيفة تحت المقاعد لتجدها كما عوّدتها تكبّ على كوماتها في آخر مقعد؛ منهمكة بالتسطير والمحو برغم نهيها لها ألف مرّة عن استعمال المحاة والمسطرة. تزعق فيها وهي لا تزال منحنية «لن تتوقفي عن عادتك السيّئة»؟! ترفع حاجبيها من بعيد، تلاحظ غضب المعلّمة. تسترد عيونَهَا الكثيرة بهدوء وترخي حواجِبها فوق ساحة البياضة الواسعة؛ متابِعة جَبْلَ التراب فوق القبر الواسع بألوانها الخشبية. تُزيح أطراف شعرها المنبوش ببصلة كتفها، وتسترسل لسحابة الصمت. مندمجة أكثر مما تعتقد المعلمة بكوماتها الخاطفة لشوق طفولتها الشقيّة. ربّما من السفوح الترابية لقوالب الوحل، بدأت تنتظر الشوق وتبحث عنه بَليلاً في أكواع جلالَ لا يصل.

ثمان وأربعين كومة، تعدّها المعلمة حين تستنهضها مع ورقة الفوليو A4 "لا تخطئين أبدا، لكن، لماذا لا تسمعين؟ سيدفنك الغبار، ألف قدم تدور حولك". حين تحاول المعلّمة نفضه تتمرد.. تفلت من يدها.. وترجوها ألا تفعل، "بس ريحتو زيِّ الشِّتَا". تلفُ الدهشة المعلمة "وأنت يا باهرة بتحبي الشتا"؟ تهمس باستحياء، منطلقة الأسارير: "مش بس معلمة، بموت فيه".

تعيش المعلمة مفاجآتها اليوميّة مع طفلة المقعد الأخير، الباهرة. لكنّها لا تكف عن سؤالها، حين تعثر عليها تحت المقعد: لماذا حجزتْ هذا القبر، وجلبت جميع بيوت الخلد من حاكورة

بيتهم إلى المدرسة؟ باهرة لم تعرف أيضا، ولم تنزعج من توقف الكومات عند الرقم ثمانية وأربعين، بدل سبعة وأربعين.. أو ستة.. أو تسعة. لم تتفوق في الأرقام، تميّزت فقط في تكويم التراب وجَبله، ولم يجرؤ على منافستها في عجنِهِ أحد. وحين التقت جلال أقنعها، على أنقاض نقاش صعب، أنَّهُ دعسات الصمت في قلب الزمن؛ كصليل الجنس في مرآة الرغبة.

أحبّت هذه الدعسات؛ لأنّها مشتقة من فعلٍ قادرٍ دوما على التحقق، مثل دعسات جنود جيش الدفاع في الجنوب اللبناني، ودعسات حزب الله في إقليم التفاح والليطاني، ودعسات لاجئي ألـ-48 في رمل المخيّمات، "ودعسات لهفتك يا جلال بين عينيَّ".

تهمس حين ينازعها الحنين.. خضراء كالبقدونس الّذي يكبّره الفلاحون في صفائح الخل. تشبهُ الّتي تراهنّا على احتمالات بقائها بعد أن يكنس الزمن كلّ الدعسات. وكانت تشاكسه، "دير بالك، هذه النباتات الخضراء رهنا لبقائنا معا". بقيت هي، وذهبا كليهما. هي مع صفيحة الخلّ الفارغة، وهو مع التراب الّذي عبّأ به جيوب سترته المهلهلة.

أحببتُكَ، ربّما، لكن أكثر منكَ دعساتِك؛ لأنّ المرأة تحتاج أن تحسّ ثقلاً في أقدامها لتظلّ ممتلئة بالانتماء إليه، أم أنّه مسّ الكينونة فقط، أن تظلّ نقيض الصدى ونقيض الفراغ؟ وأحببتُ الغبار منذ سمعتُكَ تُفسّرُ وُجودَهُ. «سيدفنُ أثاثَ

البيت، ويدفنُكِ قَريباً تحته»، تقول صديقتها باشمئزاز. تُسكتُها بِكلامِها الموزون عن فلسفة تسميها «فلسفة الغبار»، لم تسمع عنها من قبل، مرددة كالببغاء حديث جلال الطويل والمتعب. تبهّره كما اعتادت بآرائها الماجنة حول منافعه الوهميّة.

ماجنةً كنتُ في تَهْجِئةِ محبّتي وغُبَاري. منافع أتبنّاها، لم يُنزل الله بها من سلطان. حين تُلحُّ، وأرتبك أتذكّرُ قِدْراً تَركتُها فوقَ النَّارِ وأهرب. أُلفلفُ الموضوع، كيفَمَا اتُّفِق، وَسطَ استهجانها المتزايد لفلسفتي الدخيلة. تنهي الموضوع بتأفف وضيق، "أكيد باهرة جرى لعقلك شي؟" تتركني خلف الباب على عجل وتعدو باتّجاه الدَّرج، كأنّما تتخلّص من عدوى وباء. أستوقفُهَا لأستكملَ جُملتي فتجرُّ أطرافَ فستانِها الفضفاض. من زرِّ ساقِها يسقطُ اسم جلال ويتدحرج متململا فوق لزوجة الدَّرج. تلتفتُ إليَّ بحنق واعدة إيايّ بموت جميل داخل الوهم. أنخرسُ تماما. يعلقُ في ثقب أذني صدى الحرف الأخير. فيه شيء من الدمدمة والدمدمة تذيب روحها، ولو كانت مسرحا لفرح.

جميع صديقاتها عُفنها، وواحدة لم تعد قادرة على استساغتها. لن يفهَمنَ أنَّ الغبارَ موروثها الوحيد من ذكرى رجل تمنّت عنه الموت. منذُ سقطَ تكتّل عقلي في مقدّمة حذائي، كأنّما لم يكن قبل ذلك في أيّ مكان. زلّ، ربّما كما أكّدت أمّي لجارتنا بدريّة. سمِعْتُها من شبّاك المطبخ المطل على ساحة البيت

المائجة بشجيرات الحبق البرّي، تبثُّ لها ما قالته فتّاحة المندل، وتتحسّر بألم، "هذه الحزينة لم يبق في رأسها، منذ ذهاب الحزين، بِزْرة عقل، كانت مولعة فيه، وما «يكون»! وفهمتُ من لون الحُرقة الّتي التهبت في وجنتيها أنّ الحزين ليس غير جلال.

غريبة هذه المرأة، همستُ لنفسي. لا تكفّ أبدا عن توبيخ أَلَمِي، ولا يهمّها أن تحيلَ أخباري إلى نشرة جويّة عامّة. فغدا سيُذَاعُ في حيِّ التفّاحة أنّ ابنتها أَحبّت الفدائي الّذي فجّر حافلة الركاب رقم 48 في شارع دزنجوف في تل أبيب. وغداً، أيضا، ستجوبُ شرطة الوحدة الخاصّة شوارع يافا بحثا عنها. لم تصدّق مرّة واحدة بأنّه قادر على تفجير فَشَكَة في دجاجة. وكان حين يفعلون يحتج، «ليش يذبحوها؟ طيب يطخّوها".

كرهتْ أمّها أيضا. إنّها ثرثارة كالموج؛ لا تكفّ عن الشكوى وافتعال الحزن، حتّى أمام أفراد الشرطة الّذين ماجوا في ساحة البيت. بدأوا يسألون، وبدأت تجاوب على كلّ ما لم تعتقد أنّها تعرفه عنه. مجرد كلام يملؤون به أوراقهم الجائعة لأسماء يعلّقون عليها إدانة:

- أين رأيتِه آخر مرّة؟

- قرب المرحاض.

- ماذا قال عن الدنيا؟

أنّها مثلكم سوداء، وابنة كلبة.
- لا تطيلي لسانك".

- أخاف إن قَصُرَ يا سيّدي أن تَطالَهُ، مُرغماً، مِقصّات بذاءاتكم.

– ماذا قال عن اليهود؟

– ما يقولُهُ عن العرب؛ «أنذال، وأبناءُ كَلْبَة».

– ماذا لبس تحت بنطاله؟

– ما تلبِسنَهُ زَوجاتِكُم تحت فساتينهنّ".

– ماذا كانت آخر جملة غَزلَكِ بها؟»

– أُحبّك كما أحبّ الرقم ثمانٍ وأربعين.

– أهكذا يتغزل العشاقُ في مخيّمكم بحبيباتهنّ؟

– (حدّقت فيهِ بحقد):

حيُّنا وليسَ مخيّمنا، فقير يا سيّدي، ولأنّ رجاله لم يدوّروا رقما بين أيديهم منذ رأوكم، يفتعلون هواية التغزل بالأرقام، أنت تفهم مجرد وهم جميل.

– ماذا كانت آخر أمنية تمنّاها؟

– أن يصاب ليوم واحد بالتخمة.

لغموا رأسها بالأسئلة، وحين امتنعت عن الكلام لغموا جسدها بالكدمات؛ هزُّوا جسدها حتّى أغمي عليها. تدفَّق نزيف حاد

بين ساقيها، من ذات الموضع الّذي ظلّ جلال يتشوّق أن ينزف منه «لم يكن يحفظ غير الرقم ثمانية وأربعين يا أولاد الكمبة». لم تفهم شوقه آنذاك، بل وكرهت أن تفهم. خافت أن يقتل الشوق الغامض حبّها الجامح، فالرّجل يعاف المرأة بعد أن يفضّ سرّها. هو كالدعسات الّتي تحبّ شوقها في فمه، هي على عاديتها غريبة وقاصفة، وقد رفضت مراراً عروضه السخيّة لتقشيرها حين موّهته بجهلها. ظلّت ترفض وظلّ يدهش، هذه المرأة الفاتنة هل سيفهم المنطق الّذي يحقن خانات عقلها؟

ذهبت أمها بعيدَ شهور من احتفال حيّ التفاحة في يافا بكتيبة الوحدة الخاصّة. داهمتها الكآبة والمرض. وتمنّت، بصمت شديد، أن تأخذها إليها الملائكة، ليست أفضل من جلال لتعيش أشواق غَدِه. عاشَ لها بألفِ شوقٍ، لذلك خطّأ تفسيراتها المرتبكة، ونواياها الشريرة المتفاقمة تجاه وجودها. لقد ذهبَ وذهبت أمّها، ولن تملك قوّة ثنيها عن تنفيذ مخططها، حتّى قيامة جلال من موته! فاجأت نفسها حين صدّعت أجزاءها الوحدة بالوساوس والمرض، أيعودُ حقا؟ هل يعود الموتى من صمتهم؟ كانت عاجزة عن تجميع قصاصات جسده في صورة كاملة. دائما كان ثمّة جزء ناقص. ويبدو أنّه يرفض العودة إلى ما قبل انفجار الحافلة، همستْ لنفسها باستسلام، ودفنها اليأس بالشوق. كم صعبة أشواقها إليه، تفهم الآن ذلك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

أقلعت أمّها عن الثرثرة، وأقلع جلال عن الإشتياق، لمن تحيا الآن؟ يشعلُها فحيح همسه «هجّرونا عند الرقم ثمانية

وأربعين، وسوفَ نُعيدهُم إلى نفسِ آلمحطّة، وسوف نتزوّج يا باهرة حين يستطيل الزمن ويصير الشهر ثمانية وأربعين يوما، فقط حينذاك». مغَلَها الضّحك بعد أن سمعتهُ. عدّت الأيام على أصابِعِهَا ولم تصل ليوم يحدث فيه زواجها. ضحكتْ مستظرفة النكتة. يداورها؛ والمداورة أسلوبه الأثير في إطلاق النكات. لكنّها حين أصغت لبكاء الكلمات في قلبها سكتت، تماماً، وتسمّم ضحكها بالتعاسة. حدّقت بسبلتي شاربيه الضئيلين، وتملّكها إحساس بالعدم. استخفّت بالدنيا وبه ربّما، وبالرقم الّذي يهدد وجودهما معا. وبضحكها الممجوج حين أحصت أبعاد نكتته، وقررت بكلام أبحّ يرتعد نقمة «إذن.. لن نتززز..وّووّج أببب..ددداً".

تتذكر الآن ابتسامته البيضاء، نصف مشتعلة تحت ياقته، كأنّما تعتذر بنصفها المعتم عن ترددها. قرحة، أجل قرحة ضيِّقة عند نصفها المعلّق دائماً، لكنّها لم تتمكن من خداعها، حتّى وهو مندفع في استعراض فلسفةِ غبارِه، كانت تُعَسْعِسُ روحَها تقاسيمَهُ، وتتأكدُ من فداحةِ الهوّةِ الّتي سَيَخلُصُ إليها، لكنَّهَا هوّةٌ ماكرة لم تُشِع غيْر شقرقات الأمكنة في وجوه محيطيه إلاّها هي. كانت تجسّ نبض الأرقام في غمزة كوعه، كلّما انكشفَ عمقَهَا اسودّت أصابعها وجَعَرَ الخوفُ فِي حَلقِها. لماذا كان حاذقا لهذا الحد في فلسفةِ الخداع أيضا؟ هل فهم أحدٌ غيرها كُنْهَ هذا الغبار؟ كان عاصفة تملأ مخيلته عندما يرتفع صهيل الخيول في حظائر الضفة الأخرى. ولم يقل وداعا لصفيحة الخلّ

وأوراق البقدونس، هذا ما يؤلمها. وحيدا وبعيدا ذهب، ألأنّه قطع عهدا على الشمس قلّد غروبها؟ وحيدة يشيّعها الشفق بعد أن يتلفع آلنّاسُ في غرفهم وتُكزدِرُ البرودةُ في الشوارع. لكنّها تذهبُ لتعود، تتشبَّثُ ببصيصِ حقيقةٍ وآهٍ.

استحالت رأسها إلى نافورة من الهواجس اللئيمة، كلّما أشرق قرص لشَّمسِ أو أغرب. ساعات طويلة تسند حائط الشُّرفة لتحرسها من اغتيالٍ محتمل حتّى يسحبها أوّل انحدار للأفق. تعبَتْ من سَحْجِ الصّدى في مراييل مطبخها، وأصبحت غير قادرة على إحياء ما يموت يوميا في زوايا البيت. شيء ما سقط من رأسها أثناء النوم فوق المخدّة وأفرغهُ من الشّوق. دفنت قلبَها آلوحشة وفي دمها تمزَّقَتْ أصواتُ الّليل. أبقيَ شوق بعد جلال؟ كيف يمكن أن تحادثهنّ ولا ينحشر أطلس عينيه الشفيف عفوا بين ثقوب الكلام. صديقاتها لا يفهمن أنّها تحتاج أنفاسه ونكاته وغباره، وخطوات الذئب الجائع بين سيقان الكلام. إنَّ رجلا لم يتقن رقص الأنفاس في نشوة الجسد كما فعل. تمنَّعت، ليمعنَ في المحاولة، وحثّتهُ من بعيد على انتزاع استسلامها كما ينتزع مدلّهٌ طوقا من خصر راقصة آخر ليلٍ أحمر، بحيلة وشراسة. لحظة سقوطِهِ تعربدُ تقاسيمَهَا برغبةٍ رَعِنَة. «هكذا هنّ النساء، (يمازحها لحظة تطوّق ساعده خصرها)، ينتشينَ لحظة السُّقوط». تستاءُ وتتجهم ظلال خديها، تعبس كثيرا فيسارع إلى تقبيل باطن مرفقها هامسا بانسحاق «لا تغضبي يا مليكة روحي، الكلام يطير مثل الحمام

ومثل الغبار وأوراق الشجر، لكنّ المحبّة تزهر في القلب إزهار الأبد». حبّها لتكوينه يفرغ غضبها كما تفعل قرصات الشَّمسِ لبالونات الأطفال الملوّنة.

تقلّبُ رسائله الصّوتية داخل الحاكي، وتنأخِذُ بضحكاته، ببنساتها المتكررة تحديداً. لم يترك لها رجل ذاكرة زاخرة كالّتي تركها جلال. لسبب لا تفهمه، كان حريصا على رسم اللحظة الّتي لا تشاركه مشاهدَها. يوثّقها، صوتيا، بعناية ودقّة «صباح الخير» .. «مساء الخير، وِلِك وينك، انتظرتك قرب بائع الذرة المشويّة، تذكرينه، أليس كذلك؟ قبل المنعطف المواجه لمقبرة النصارى"، «لاح أخنقك مش عارف ألقيكي، أنا قريب من ورق الخرّوبة اللي سجّلنا عليها أساميا، الساعة سبعة ونص، بس وينك، وينك».. «إحكيني ضروري، ع حداعش ونص قبل ضربة جرس الكنيسة ، واليوم يوم الأحد.

وقعت الدنيا بكلساتي، وتحمّص راسي، بس بلاكي ولا ولا ولا شي ماشي"، يغلق السماعة ثمّ يعيد الإتّصال.. "ماشي ماشي ماشي على مدرستي ماشي، بدييش أصحا قبل ما أَشُوفك، إِفهَمي عاد! طفّرتِ بُسطاري وسماي، قلبِي آنخلع، إسألِيني ليش؟" .. "مشغول على طول بس بفكر فيكي زي المهبول". . "مِششتَقْلِك، وِلِكْ وينْ وينْ ربّك؟ تضغط أسنانها على آخر آلكاف، تُعِيدُ مذاقها وتبتسم بقهر. تذكر أنّها أعادت رسالة صغيرة بعد طول انقطاع لتغيظَهُ، «ربي هناك فوق راسك،

وربك أنت». أغاظه استفزازها، أيّام ثلاثة بطول ليلها وعرض نهاراتها، أين تذهبين؟ شتمها وشتم الدَنيا الّتي ألقت على لهفته كبرياء صمتها.

كم يبدو الأمس فاتناً وخائناً. ابتعدت عن الحاكي بحركة عصبيّة، وسرت في أعصاب رأسها قشعريرة. حاذتِ النافذة، وشتمت رائحة العتمة ودندنة نبالها. «لحد بعيد تشبه رائحة شعره»، همستْ بألم. على غير توقع تدفقت موجة هواء صاقعة ونفضت الغبار الّذي حجّ إلى المكان. غمرَ وجهها فعبّت منه بسخاءٍ فتسبّب لها، على الفور، بنوبة سعال حادّة. جرت إلى المرحاض لتستفرغَ ما اختلط بسموم جسدها، ولم تسعفها غير قطرات متفرقّة من سائل حامض، حدّقت فيه بحياد كأنّه لمعدة سِواها؛ معدتها خاوية، ومنذ أيّام لا تمتلىء بغير آلهواء.

تقاومُ القهر بالموت، لكنّها لا تموت ولا يعود جلال. منذ متى لم تتفقد زوايا البيت وتكتشف الغبار يتزاحم بهذه الكثافة؟ سيدفنها بلا شك، ويوما ما ستجد نفسها تحته جثّة هامدة. لم تخطئ صديقاتها التقدير. وإذا لم تفكر بطرده سيقتلها. حرّضتها الفكرة على ذبولها، «لأنها لا تموت يجب أن تحتلّ مكانه»، وَعَدتْ نفسَهَا. فجأة اشتمّت في بللِ العتمة أنفاسه ذكيّة كما اعتادتها، وتعبّأت حيويّة. مُدهشةٌ حينَ يتموّج الألقُ ثلجاً في عينيها. التفتت إلى

الخلف حيث يربض الحاكي، وأطلقت خطواتها للهواء.

نهض الهواء معها وأطلقَ ساقيهِ لفراغِ آلصَّالة. نفضتِ الكنبة والزَّوايا الّتي آستوطنتها بيوتُ العناكَبُ وأَغمَضتْ على حُلُمٍ بهيج قبل أن تتجددَ ذاكرةَ الحاكِي وتضربَها في منتصفِ قلبها.. «وِلِكْ وِينْ وِينْ وِي..ي ينْ رَبِّكْ". جرت محمومة باتّجاهه، وأغلقتهُ بعنفٍ أَسقطَهُ فوق قدمها. سال عصير شريانها، ومعهُ انهار قلبها. جرّت خطواتها إلى الكنبة القريبة، وتلاشى كلّ شيء، كأنّها لم تتألق قبل لحظة. كان جسدها مرهقاً وأشبه بخرقة مثقوبة يمطر من أطرافها البكاء.

مع حلول المساء سكنت أنفاسها تحت الشرشف المورّد بأزهار البنفسج، وكانت تهمهم بشوق لا يصغي لأنفاسِهِ إلّاها، «يجب أن تعود يا جلال؛ أنا والغبارُ في شوقٍ قَاتلٍ إليكْ». حينَ تناهتْ لِمسمعها طَرَقاتُ حذاءٍ بعيدٍ أبرقت عيناها وانتظرت مستثارة. كانت ستركضُ إلى البابِ وَتُشْرِعُهُ عَلَى مِصراعيه، لولا أنّ الطرقات غيّرت وجهتها عند التواء السَلالم.

حين تباعد حفيف الخُطُواتِ أَقْعت فوق البلاط العاري؛ باردة الملامح، جاحظة الذّاكرة، تتذكَّرُ أنَّ آخرَ ما رأتْهُ من جلال قِطَعاً مدمّمةً لشكلِ جسد، لا يمكن أنْ تُسَمِّيها جلالا.

مُحاولةُ اغتيال

دخلتُ وحدي.. لم تكونا يديك هناك. قلب المساء أحمر، والشّارع يزدحم بماركات سيّارات لا أحبُّهَا. لم أفتقدك من قبل هكذا. المقهى يطلّ على الشّارع وقلب المساء يتدحرج بين المارّة؛ كقمر جميل سقط من مدارِه. لا أحد، رواد المقهى يقررون أن يتركوه فارغا وجاهِزاً لاستقبال ظلّي المتمايلِ تحتَ بكاء الشِّتاء. لماذا لا يصبحُ الِّشتاءُ رجلاً أقتُلُهُ، وأخبئ رأسه داخل حمالة نهدي حتى لا أحنّ يوما لرائحة رجل؟ لم أعبد إلها غيره هذا الإله الصّاخب.

تطايرت الموسيقى فاتنةً من جدرانِ المكان. غامزَتِ الضّوْءَ البنفسجي آلخافت للمساء الشتوي، ورقّصت خشب آلكراسي آلأخضر. وضعتُ عكازي الأزرق جانبا وألقيتُ قلبي فوق ساقي المكسورة. كانت القهوة إذّاك تقول شيئا لا أفهمه، والفراغ من حولي يعبق برائحة تشبه القندول أيام تفتحه الأولى. مرة أخرى أَجَلْتُ بصري بين الطاولات النّظيفة اللامعة، وأردت هذه المرة أن أتقيأ، ولا بعوضة صغيرة او فراشة ضالة واحدة تخربط هارمونيا المكان. قبضتُ عنق

قرنفلة خمرية أمامي وبدأتُ أنتّفُهَا، وتمنَّيتُ أن يأتِي آلرَّجل آلأسود لينتّفَ شعري. رأيتَهُ يتعقَّبُنِي منذُ أغلقتُ بابَ شقتي على الأوراق والنبيذ والجيتارة وخرجتُ أزحف تحت تهديد غيوم ثقيلة.

الآن فقط تأكدتُ من هوية الموتور الرصاصي الذي لم يغب لحظة واحدة عن عين السيَّارةِ اليمنى. أراهُ عبر الزجاج الذي يتدفَّأُ بالثلج يحتمي بواجهة المبنى المقابل. في لحظة ما أحسستُ أنَّنا، هو وأنا، نركض إلى مصير واحد، لدرجة أصبح وجوده في العين اليمنى قدراً. وكنتُ كلَّما تلاشى هديرَه من رأسي أو انطفأ ضوءه من عيوني أُحسُّ بالضياع. أصبح وجوده بالنسبة لي هدفا تماما كما أصبحتُ.

بُعيدَ دقائق ميّزتُ الرجل الأسود. غافلتُه، واصطنعتُ عطلاً مفاجئا في سيارتي، وبحركة مزعجة ضلَّلتُ الخطوط البيضاء وضلَّلتُهُ، حتّى خُيّل إليَّ أنّه نسي مهمته السريَّةِ تماما. لكنّهُ حين استدار بغتة بكامل سواده نحوي تنبَّهَتْ لحركتِهِ السريعةِ عيوني.

أميّزه الآن بسواده الكامل، بدلته الجلدية ومخبأ النخالة الذي يرتاحُ فوق عُنقِه. وهذه المرّة تساءلتُ، بجزع حقيقي كأنّها مرّة أولى ألاحَقُ فيها من مخابىءِ النخالة: لماذا تعنيه حياتي لهذا الحد؟ لا شعوريا بدأت أستذكر تفاصيل حياتي الصغيرة؛ امرأة بلا ماض، وحاضرها ابتدأ منذ سكنت حيّ الحليصة، وتحديدا

شارع النداهات رقم21.

مضيتُ سريعا مثل كَرْجِ الماء على الدَّرجِ أوزِّعُ حياتي يمينا وشمالا. أعيش كالصراصير الليلية في قبوٍ أُصرّ أنّه منزل جميل. أكتب كل ما لن يخطر ببال مخبر سري. أسكت، كأنني أكتشف ذكاء خارقا لم يسبقني إليه أحد، ثمّ أهمسُ بقناعة لا ثانيَ لها، داهية، أجل أهملَهَا الزّمن وألقاها إلى رصيف الفقر. تأكل خسا وزيتونا وتنام؛ متأبطة ذراع دب صغير.

تتذكر بابتهاج، شكله الكروي من الفراء الناعم، وتعترف: اشتريته من بائع ألعاب غزّي متجول لئلاّ تقتلني الوحدة، والعتمة، والشتاء الذي أحب. فالشتاء لا يرأف بعشاقه، والعتمة حين تستوحش تبتلع الكون. أزرع النعناع والزعتر في أصص الفخار، هي أيضا أبتاعها من بائعي غزة المتجولين. طيبتهم ونظرات عيونهم المنكسرة دائما تذبحني، تضعني داخل حوامة تيه، ولا أفهم كلما سقطت في قلبي رجفة أجفانهم لماذا يصر رئيس الحكومة النتن-يا-هو على نعتهم بالكسّارين بدل المُنْكسِرِين، كسرهُ الله. على كل حال، أحاول أن أشد من أزرهم، برغم فقري وتعاستي؛ ببعض الشواقل الّتي لا أجد مبررا لاستبقائها في جيوبي، فستزعجني أصواتها أثناء النوم حين أتقلب من جنب لجنب. من يدري!، ربما تقرر أن تستحيل فئرانا تقرض لحمي، وأنا لا أقرف شيئا كالفئران، إنها تحب النبش كالرجال شديدي السواد.

أحب الخبيزة مرة في الأسبوع لكنّي أتناولها بصورة شبه يومية؛ لأني لا أنجح في العثور على غذاء أرخص منها، غير أخواتها من عائلة البقوليات. بفرح حالم، حتى ظهر سعيد الجبالي وأنقذني من بعض أيام الخبيزة وداء الأنيميا، وشجعني على العمل في السوق السوداء لأنها تُربح ذهبا، وساعدني على اقتناء سيارة كالسلحفاة؛ هي من أتباع الخردوات، لكنها جميلة وغير مكلفة. غير أنّ غيابه المفاجيء جعلني مثل القَرُوطة ليس لي حدا ولا بدا. أتهلوس أطراف النهار، والليل الذي كنتُ أُخيفُهُ صار يُخِيفُني..لم أفتقدك من قبل هكذا.

أصوم وأصلي في اليوم خمسا، وأدعو الله أن يغفر لي تجارتي السوداء، لأني يتيمة ومنذ موت أبي التحقت بمدارس الصعلكة والفاقة. كل الرجال والنساء حين تضيق بهم جدران القباء يغتسلون بالقار. وأخون الله، هكذا استكمل المغرضون الحلقة التي تحيِّرهم في حياتي حين أقلعتُ عن نشر يومياتي في الهواء. تباحثوا مع أنفسهم، وقرروا وحدهم أيضا إرسالي إلى السوق السوداء. وبعد أن فشلوا في فهم فلسفتها وقفوا أمام خيارين: الزنا أو المخدرات. ولكي يضربوا الشرف والوجود بحجر واحدة وقفوا على الخيار الأول. أشاعوا أنني أخون الله مع رجال شرفاء، وأن عبادتي لله هي في الحقيقة عبادة أوثان. لقد رآني أحدهم أصنع تماثيل من الأحجار الميّتة وأركع لها. ثمّ طيّرهم الحقد حين رأوني أتجول دون خجل بين وادي النسناس والحليصة، كأن هذه الأحياء العريقة مواخير لا ترتادها غير

الساقطات، كأني واحدة ممّن يتساقطن في جحورهنّ. وأنني أُكثر الإنحناء فوق صناديق البندورة والخيار. قلت لكم: ليس في جيوبي ما يزيد عن ثمن هذه الخضار البعل!» صرختُ بغضب وعاودتُ الإنكفاء فوقها.

أضعُ فوطة بيضاء على رأسي، وأحيانا ألفها حول عنقي لأصير فاتنة، وامرأة. أفضل الأحذية السوداء البراقة؛ فهي تذكرني بالأيام التي ربما ستأتي من عمري، حينها أتخيَّل شعري القصير طويلا طويلا كجدائل حورية العين التي أرهبتنا من غنائها العجائز في صغرنا، وأذنيّ مزركشتين بحلق لولو أزرق كبلقيس ملكة سبأ. تطلقُ بسبسةً رقيقة من بين أسنانها، لا أعلم لماذا ظلّت بلقيس تسحر طفولتي بلا توقف، ربّما لذلك تخيلت عينيّ كعينيها، بحجم فنجان قهوة. شبيهتا عيون «أليس» الجميلة التي تحدثت عنها أسطورة بلاد العجائب. كي يعشقني أمير صغير وأصير أميرة.

أنجرف مع تيار حلمي الأهوج، حتى تبلل شعري قطرات الرطوبة المتسربة من سقف قبوي التعيس. حينها فقط أصحو، وبألم أتذكر غياب سعيد الجبالي؛ هذا الأمير الصعلوك، بات أحد مركبات حلمي. فجأة اختفى، وفجأة سيعود؛ كمرة أخرى سابقة. يأتي فارعاً دارعاً للقبو الذي فيه سأموت بلا حلم وبلا شعر أو حلق. ولا تنسَوْا أخزّنُ القات المستورد، وأمجّ التبغ الرخيص كلما خذلني الزمن.

إمرأة غير شكل، سوقي على عصري، قرفة على ماسكارا، وتحب أسنان الأمير الصعلوك سعيد الجبالي الحادة فهي، برغم حضارتها في مسح تضاريس الجسد، تذكرني بالانسان القديم؛ الذي أكل يوما ما لحم الغزلان نيئا. لو كان الآن يسمعني لمسخ وجودي، وذهب لأظل أخاف الليل الذي أَخَفتُهُ ذات يوم وأبحث كالقطط والكلاب عن رائحة رجل.

الرجل الأسود يقف في مواجهتي الآن، يحتمي بواجهة المبنى المقابل من ثلج الشتاء ومن جمر عيوني القانية منذ اكتشفتُ أمر تعقبه لي. عبر الزجاج الذي يتدفأ بالبرد والصقيع عرفت أنه يجهل موقعي. كان صعبا أن يرى غير الليل الذي يمشي فوق رؤوس الناس الذين أعدمهم المقهى جميعا وأبقاني. وحدي، وبلا زنار يديك. لسبب لا أدريه هاجمني شبقك، رائحة أنفاسك، وأصابعك وهي تشكُّ كلَّ موضع فيّ بالقبلات والهمس الأبيض، وأردتُ أن أكون لك في هذا المكان بالذات، الذي لن تصله ربما لأنَّهُ الإستحالة ذاتها. حاولتُ أن أدوّرَ مشيئةَ الزَّمن على مزاجي وربما، لو كنتُ أعرف أن ذلك ممكن لما جرؤت على الضلوع في جريمة الشوق اليك، إنّه كالموبقة والمعجزة. صحيح أنّي شاغلتك عن المزاح بالنكد، لكنَّك لم تكن تعرف أنَّ مصدره خوفي من مسألة التورط بكل ما لا تراه في يديك وحول قلبك، وأراه أنا معشوشبا فوق نهديّ وفي جرح عينيَّ.

أحبك يا سعيد، يا صعلوك الصحراء الصعبة، يا سنجابي

الجميل، أحبك ربما كما لن أفعل مع رجل سواك. لقد فهمت ألاعيبي الصغيرة وطقوسي المطيّحة للدماغ ولم تنشن. برغم أنك ناري قررت أن تشاكس التراب بل وفكرت، قد نتهادن.

يا سعيد، يا جبالي، لماذا شهرة مرزوق بالذات التي تحاول أن تهرب من اسمها ومن حياتها؟

هذا الوغد لن يتركني. سآكل خروفا محشوا بالهواجس، وتقرقر القهوة في حلقي ما استطاعت، وترهق شفاهي عشر سجائر وسأخزِّنُ بعض القات، وسأداعب حلمي الأهوج، وسيجلده الصقيع وسينتظر. الرَّجل الأسود أحيانا تحتله حكمة صاعقة حين يتعلق الأمر بلحم امرأة بيضاء. لا يهم اذا كان سيمزقه بأظافره، أو بأسنانه، أو بأية وسيلة تعذيب أخرى.. المهم ألا يفوته. هذه استراتيجية سوداء أستطيع على الأقل أن أجزم بأن رجلا أبيض لن يفكر فيها، ابتداء بآفي رفائيلي؛ صاحب الشقة الخربة التي استأجرتها وأجرّ حياتي لشياطين نزواته المجنونة معها، وانتهاء برونين زهافي؛ صاحب الشقة الخرِفَة المسكونة بأرواح ضحايا اوشفيتس. المقبرة التي عذّب وجودي فيها وسكّنه الكوابيس وعواء الخنازير البرية، حتى وقفت بين حقي ورغبته المحكمة. وحكمت له، كما يجب للنساء السود أن يتوقعن، ببيع البيت، وخردوات أرواحه بحكم انتمائه للجنس الأبيض. حينها، فقط، تنبهت لحقيقةٍ غابت عنّي طويلا، وتساءلت بسذاجة مطلقة عن اللون الذي أنتمي إليه!

لتوخي الصدق، لم أعرف قبل أن يصرخ بي عبر الأسلاك الغاضبة «عرفياه ملوخليخت». عرفتُ، ولفَّعَني الوجع، أنَّ لوني «مِلُوخْلَاخ» يعني من عائلة الملوخية وما شابهها؛ أخضر، ربما قبل أن يذبل وبعد أن يذبل أسود. هكذا أنا أيضاً التقيتُ بأصلي الأسود، لكن ظلّ عزائي الوحيد أنني امرأة، وهو الذي يتاجر بلحم النساء البيض رجل. وأنوثتي الشفافة لن تدعني أفكر بمسألة المتاجرة بلحم الرجال البيض. ولأنّي كذلك، شاء آفي ورونين أن يتاجرا بلحم انتمائي، فيرهقا جسدي وروحي، ويتعاملا مع حروبي الصغيرة ضدهما؛ كقضية عارضة لبعوضةٍ يشوش أزيزها راحة الرجل الأبيض. وكان يكفي أن يبلِغَ أسياده بإزعاجاتها حتى يهبّون لرش جناحيها بأي مبيد سام، حتّى يعود هو للنوم ثانية هادئا مطمئن البال. هذه المكائد لن يتمكن منها رجل أسود مع لحم أبيض لأنه، ببساطة، لا يملك وسائل لترويضه حتى يسوّقه. وسيظلّ، لا محالة، مثارا للشك والإتهام.

فهمت بعد هزيمتي أنني في عيون الرجل الأبيض سوداء نجسة، وفي عيون الرجل الأسود صيد لا يُفوَّت، فكرهتُ العالم. كرهتُ كلّ الرجال والنساء، بيضاً وسوداً. لن أنتقم لنفسي من أحد؛ لأنني بعوضة صغيرة، لا تتقن غير هراء الرجال والنساء، وابتلاع أكاذيب الساسة. ليتني إذن كذبة بيضاء؛ لأضحك على الجميع، وأهرب منتشية. قهرني الرجل الأسود بملاحقاته السمجة فأقلعت عن عادة التنفس، والحياة

أضحت سلسلة كبيرة من الممنوعات والمعاناة.

أحبّ أن أستمع أيضا لسمفونيات هايدن وتشايكوفسكي، ثقافة مهربة حاولت أن أنمّيها في عتمة القبو لئلاّ أُتَّهم بالعمالة. بالطبع لم أفهم أنها ثقافة معادية، قبل أن يضبطني المخبر السري. أعوم في مستنقع الرطوبة داخل عتمتي تلك، أحتضن مسجلا صغيرا، أطوّقه بذراعيَّ فوق صدري، وأعوم مع بحيرة البجع التي يدندنها. ومعنا البكاء لنزداد عذابا والرطوبة والضجر. مسجل صغير أصبح هوية لانتمائي، منحني إياه رجلي الجبلي أوّل مرة سمعني أتحرش بمواضيع خطرة وعظيمة، كما قال، «كالكلاسيكا». وخِلْتُهُ سيقعُ مغشياً عليه؛ لهول المفاجأة، من الفرح حين سمعني أفلسف هذه الكلاسيكا، وأبهّرها بما توفّر عليه عقلي المتّقد بالمعرفة من شروحات ومفردات صعبة من مثل: اللافيولا، والتشيللو، والسونيته وملحقاتها.

خلبتُهُ بكلِّ ما لم تمتصُّهُ الرُّطوبة وتزهِرُ مكانَهُ آلطّحالب. يومها صُعق.. «كيف يمكن لهذه الحضارة أن تخضّرَّ في قبوٍ معتم؟! «ابتهج صارخا، فغضبت: «لا تسخر من أصلي يا جبالي فلم أقُل لأهان»، «لا سمح الله يا شُهرَة، أَنْتِ شيء نادر». وبعد أن غادر، تولَّت آلة التسجيل بدله قرض أطراف حديث استدرتُ معهُ، حولي مرّة، وحول العتمة مرّة، وحول صدى الكلمات الذائبة مرة؛ أبحثُ عن هذا الشيء الذي أكونُهُ، أو يعيشُ فِيَّ،

فلم أقع على غيرِ مخلوقٍ برمائيٍّ صغير، استطاع التسحّب عبر شق يفتّتُهُ نزفُ الرطوبة، ففرحتُ لِأنّي اعتبرتُ ظهوره مفتاحَ هذا «الشيء» الّذي تحدث عنه الجبالي.

سيقزّم قامته الصقيع. أراه يستحيل قالباً ثلجياً، لا تزحزحه ريح. يصمم عليّ، لن تستغرب، توقّعتْ أنْ يُرسِلُوهُ في أعقابِها. سنة طويلة مضنية لم تكف خطواتهم خلالها عن عدّ أنفاس اللّيل في رئتيها، منذ قرّرُوا تَجريدَها من خصوصياتها، ونبشِ تفاصيلِ حياتِها شأن الفئران الجرباء حين يضوّرها الجوع.

في الأيام المقمرة، لمحتُهم خلف نوافذي الأرضية؛ يقيسون مسافات ارتخاء ضوء القمر في ظلال جسدي، ويتحززون هوية الجرو أو الرجل الذي يستتر تحت بطانية الصوف لجانبي. في الحقيقة لم تكن التموجات الّتي أثارت فضولهم تحت البطانية غير نوبات الصرع التي تنتاب ساقي؛ السرّ الّذِي لم أُطلِع حتى سعيد الجبالي عليه.

بعد أن زخرت نوتاتهم بكلام سخيف وبذيء طال حتى لون الجرابات التي أخفي تحتها دمامة قدمي العوجاء، وشكل حمالة نهدي ملّوا من الكتابة. تلاشت خرفشات أقدامهم وخربشاتهم لأسابيع عدة قبل أن يحتفل بوجودها الرّجل الأسود. اقتنعوا ربما، بأنّهُ سيؤدّي المهّمة بشكل أفضل. وربما كي يمنحوا متّسعا لخيالاتهم؛ كي تنسج ما غاب عنهم. ألأفكار المتّسخة لا

تنمو إلاّ بمحاذاة الظلال، همستْ بقرفٍ وَهِيَ تَلمحهم يعدُون مثلَ جِراءٍ مذعورةٍ إلى فروعِ الخرّوبةِ الهرمة. وهكذا؛ وجودهم ولد في الظل وسيبقى لأجَلٍ غيرِ مسمى هناك. حتى مؤامراتهم الصغيرة سفحوها تحت ظلال الشجر وبالوا عليها حين فرّت عنهم من شدّة الضجر.

وما لم أوثّقه ضمن مواهبي الكثيرة أنني أعشق الإغتسال بماء الوادي العكر. أذبّح أعناق الشجر حين أغضب، وأتسلّى بِمَصْعِ صِغارِ الفسفس؛ الطائر الصّغير المدهش. أُحبُّ عشَّه، لأنّه مثلي؛ أرضي وجدرانه كجدران قلبي حين يشتعلُ بالشوق، من الريش الناعم. خندق طويل يدفئ يدي الخسيسة حين تمتدُ بحثاً عن الصِّغار لِتقتلَهم انتقاما من شبح آلكآبة. بِلا رحمة، أفصِلُ أعناقَهُم اللينة بسكين الجيب الذي أحتفظ به للمفاجأة، فتملؤني فرحة الحياة. أُتقن حرفة القتل، ككل مجاذيبِ الدُّنيا، وأقهقِهُ وأنا أقذِفُ الجماجِمَ الصّغيرة لديدان التراب تأكلها. أشتم الدنيا والناس والضفادع؛ حين تعكّرُ صفوَ جلساتِيَ الّليلية على العين، عين النداهات. وحين لا أجدُ من أصبُّ حقدي الدفين عليه، أشتم نفسي وأسخر من هيئتي المتحلِّلَةِ في الماء، وقد أشوِّهُ وجهَ الشِّتَاء، وأُمطرُ غِيابَ سعيد الجبالي بزخاتٍ متفرقةٍ منَ اللعنات واللوعات. ربما لن أحتاج ظهوره، أقول. هكذا هو الغياب يزخم الجسد شأن الذاكرة بعصارات طحلب مائي يظل يُرغِي تحتَ الجلدِ ويجوِّعُ الخلايا، الى أن يصبح رجلا فيفقدُ نكهةَ ملامحه.

أمضي ببطء إلى باب الخروج، فيتحرّك من بعيد هيكل الرجل الأسود بمحاذاة غمامة الشتاء المقترب. أتصنّع اللامبالاة، وبحركة تلقائية من يدي، المكفنة بجلدِ حمار وحشي مستعار، أُقنِعُهُ بأنّي لا ألقي بالاً لغير احتفال الدنيا والبجع الأبيض بالشتاء. أتابعُ سحاب البجعات الّتي تحلِّقُ فوق رأسي فأفرفح.

يطيرُ الرُّعبُ من أطرافي المتصلِّبَةِ. يزدادُ قناعةً بصفاء نيّتي حين أنشغل بصنع درع جليدي لمؤخرة السلحفاة. بأن عينين سريّتين لا تتفتَّحان بين كتفيَّ، وبأنّهما لا تسجِّلان كل ما يعابث الله والوجود به. يتقدم، وتقريباً يحاذي أكتافِيَ المُعتذرة لِنَذالته. أتنبَّهُ فجأة، سوف يغدر بي؛ كما يفعل ذئب ماكر. عيناي السريّتان لا تكفّانِ عنِ الإنصعاق، يقترب أكثر، والنّاسُ من حوله خلية نحل ليس في دماغها غير فكرة واحدة مسحوقة.. الهرب!. يمدُّ رأسَهُ ليطلّ بين كتفيّ. بغتة أدوّرُ رأسي. تدوخ عيناه. يهطل غيمُ آلسَّماءِ من رأسه الحليقة. أقبرُ وجهه بدرع السلحفاة الجليدية، وأُشهِرُ سِكّين لجيبِ في مواجهة جبهته. أجري لرأس السلحفاة. أهزّ المحرك بلسان المفتاح، وألوّن بياض الدنيا بغضبي وبدخان الرجل الأسود.

أجرّب أن أفلت بوجودي من حتف يدبِّرُهُ ربما. للآن لم أفهم ماذا يريد، ولو أنّي تركتُه يتكلمُ ربّما لم تحتدم المعركة. بدأ الخوف يؤنِّبُني، لكنّي متأكدة، كان سيخنقني من الخلف على طريقة السفاحين. عيوني النبيهة ابيضّت في عينيه عند اللحظة الفاصلة. تذكرتُ بعض أفلام الرّعب، بعض مغامرات أجاثا

كريستي وأرسين لوبين؛ لعل حيلة واحدة تسعفُنِي.

عبثا، بقيتُ أركضُ بلا عقل وهو فوق رأس السلحفاة: أشتُمُهُ ويشتُمُنِي. أَبصقُ بوجهِ آلدّنيا آلّتِي رمتهُ إليّ، فيملأ الشارع والهواء الذي يتقاذف شعري بالبصاق. ألعنُ أمَّهُ فيلعَنُ أبي. أصرخُ فيه، «ستندم لا تلعن أبي»، فيزداد ابتكارا للشتائم وتفسيرا للعرض. إبنُ القانية، أبوك أقحب، أغلق فمك». سدي بوز حذائك»، «يا إبنِ آلشَّوارع». ألفُّ يميناً ثم شِمالاً، بعنفٍ يكاد يقلب درع السلحفاة. أسمعُ طرقاتِ شتائمه، «كلبة، غير مؤدبة، عاهرة، كُفِّي عن هذرك»، يقولُ. أُجِيبُ، «سَأُنْسِيكَ كيف يهذرُ البشر». أدورُ عَلى ذاتي، وتلفّ رأسيَ المرهقة.

أرجعُ ببطءٍ، ثمَّ بِعنفٍ إلى الوراء، وأجذب عجلة القيادة أماما. يدوّي صراخه في رأسي؛ كموجة رعد مسعورة. يفقد آخر خيط يوازنه مع خطوط الشارع، ثمّ يقلبُ قريبا من دورات العجلات المتسارعة. أركض بحياتي، ويركض بعناد خلف سلحفاتي، آخ... لو كان الموت رجلا لسحقته تحت عجلاتي.

لن يهمَّهُ بعد الآن، غير علاقتي الغامضة بسعيد الجبالي، صعلوك صحرائي الغائب. قد أتركُ الحلِّيصة. سأبحثُ في وادي الجِمال عن نوافذَ لا يرى الرّجال منها النساء، وسأغيِّرُ أسماء الشوارع. سأختار إسماً وهميا للشارع الذي سيحتوي جثتي. العالم بشع، ولدُّنيا بنتُ كلبة؛ تقتل النِّساءَ البيض، بدأتُ أهذر. أعقابُ

الكلام تتطاير؛ مثلَ أعقابِ سجائرَ محترقةٍ مع بصاقي بكلِّ اتِّجاه، وربما ألغى الكلام حروفه.

الرجل الأسود يطيح المدى، أراه داخل العين اليمنى للسلحفاة. أُصيرُ عجوزا تُهرهِرُ سُبَاباً أَبحّ، بكاءً حانقاً. أمسحُ دمعي، أعطسُ بِألم وأعودُ لنوبةِ الخرف.. الدُّنيَا بنتُ كَلبة، كيف سأحتمل أنيابها بدونك يا سعيد يا جبالي. شوقي لرائحتك يُدمِّرُني، تُرَى كيفَ سَتعودُ إليّ؟ جائزٌ أنَّك غيرُ ضروريٍّ لامرأةٍ لَحْمُهَا أبيض. الرِّجالُ السُّودُ فِي المدينة مُنتشِرُونَ كَالبعوضِ في كلِّ مكان، ورائحةُ الدّم طازجة. إنَّهُ خَلفِي؛ يَقتربُ بِحمقٍ، وَعيونَهُ تنزفُ منْ ثُقْبِ إبرةٍ قيحاً ونذالة. مُطاردة ملعونةٌ، ربَّمَا لن تنتهِي حتّى بِالموت.

أشواقٌ نازحة

لو أنّك تعرف أنّها سبعة أيّام قاسية، حافلة بالوجع والانتظار، أعدّ فيها الساعات، كما يفعل طفل يستعد لدخول السنة الاولى ابتدائي. بتلهف وقلق أتابع أنفاس الهاتف؛ بتوجس وحيرة وأراقب التفاف العقارب..

لقد أعلنوا رام الله منطقة عسكرية مغلقة. ولا أحد يتنبّأ بموعد فكّ طوق الحصار عن عنق رام الله. هاجر منجّموها عنها، وتركوا ريش أوزّها تحت أقدام الأطفال؛ يخربش مواعيد الأيام الآتية. تناقلت مصادر بعد ذلك خبراً سريعاً يفيد أنّ قائد قوّاتهم الأعلى للجيش على علمٍ بلحظة الإقلاع.

قيلَ خمس دقائق بعد تفتّح زهرة الصُفّير. لماذا الصُفّير بالذات؟ تساءل الناس بعجب. فأشار أحد المجتهدين إلى حساسيته من الرائحة الصفراء، وأضاف «إنّها تغمر قلبه بالكلأ». وهل يهدد الكلأ ربيع الناس؟ «لا بل يتوعدهم بربيع غير قابل للزوال، وأمثال أولئك الجبابرة لا تناسبهم غير مواسم الصيف الحارقة». ضحك من سمع خلف النوافذ «يجب إذا أن نسجن الصفير في دفيئات ونطلقه على الغزاة وقت الحاجة». تعالت أصواتٌ

أخرى «ماذا لو بدّلوه؟» سنبحث عن زهرة أخرى تزهر ربيعا في كبد وريثه. ضحكوا، وأغلقوا النوافذ تحت مدرّعة جهمة تقدمت الهوينى من الصمت المفزع وحينَ ضيَّعت من قد تفقده ساقاً أو ذراعاً تجشّأت ذخيرتها في مناقير الحمام.

أنت خلف كلّ ما يأتي به حمام رام الله الزاجل، وحده لم ينس خارطة الذهاب والإياب. ويبدو لن تشفع لي، هذه المرة، ثقافتي الواسعة في علم الفلك، ولا تقصّيَّ الدؤوب لحركات النجوم في السماء. رحل المنجّمون وظلّ النجم أرملاً عاجزا عن التزاوج والإنجاب. هل تمحل دواليب المدينة إذن؟ من الشرفة الكبيرة المفتوحة على قلب البحر حددتُ مسار نجمي، تخيّلت تقاطعه مع خارطة الغزو.

سبعة أيام مرّت قبل أن أقرر طالعي مزيّنا بأربعة ذيول حارسة. مرّ يوم آخر قررتُ بعده فَأْلي. وضعت دائرة في بطن السماء وختمت عليها قلبي. ساعة بعد الفأل طوّقت المدينة الجميلة بأكاليل الخاكي. اندهش النجم من ملعوب السماء. كان فألاً حسناً، همس قريبا من قلبي. ترك مقعده شاغراً ونزل يراقب معي كيف تموت تحته الحياة. والمدهش أنّ شيئا لم يتغير في موقف السماء وهي تعبر، مع سحب المدرعات السعيدة، أسواق الخضار. والمدهش أيضا أنّ شتائمنا القديمة وحدها استفاقت من المخابىء على أصوات الحرب القادمة. كان الناس نياما، ولم يمشِ في الشّوارِع غير القطط الحبلى، ودجاج عائلة غادرت بيتها، ليلاً، إلى أحدَ المخيمات. في نزهة أو زيارة،

ويبدو نسيت فتحات الأقنان بدون رتاج.

تسلقت مفرداتها جسد الصباح، وهمست بما تكرهه. ثمّ دهشت ثانية، كما كانت تفعل تحت الظلام، تفتح عيونها تماما وتركن رأسها المنتفخ؛ على شكل إجاصة ممتلئة إلى الأمام. كيف لم أفرّط طوال هذه الشهور بشتيمة واحدة، أتساءل.

برغم عدم يقيني من جدواها كدّستها مثل دستات الملح والسكر، لعلّها دوافع اللعبة بين المتحابين؛ أن تبتكر في غير مجال اختصاصك. والشتائم، اتفقنا منذ البداية، ليست من اختصاص أحد. كلمات بذيئة جدا لم تحشدنا بغير الإصرار على التناكد في التعبير عن مفردات التعاشق. هل عشقتك حقا مع ذلك القدر من الكبرياء البغيض؟ لا أعرف، لكنّهم يقولون: الكبرياء قضيّة خاسرة في مسألة الحب. تحت الظلام، حين يذهب الناس، ولا يبقى للمساء سوانا، نحشر فقدنا في أنفاق مبحوحة النداء. لا يُسمع خلالها عدا عن حبو الجسد إلى القلب أو الكبد. لا يفسره سوى العتمة.

أغبياء نحسّ، في ظلام لم يتعلم فهم اللغات. نشيِّعُ الفرح في مشاوير الروح إلى قمم العطش، ونبكي الظلام. كم من الزمن يمرّ حتّى تعترف الشتائم بعجزها عن مقاومة زلزال الأشواق المؤجّلة. أهمس لنفسي «وربّما لن تعترف أبدا». هنالك ظلام يبكي ويمسح بكمّ دمعهِ الهواء، أمّا ظلامنا فيبكي الهواء ويهرِّبُهُ ليَشْبعَ دفئا أحمق.

أجل لم تشفع لي، ولا زواقيق لغتي القادرة في كلّ لحظة على إلغاء تفوق منطقها عليك بالانتحار. كأنّك، سائد، لا تعرف أنّي لا أجالس غير شمعة تذوب تحت ثرثرة الصمت، وعيون لا يكف عن الهطول في محجريها الثلج، وأصابع تطرد الجمرَ من اطرافها الوحدةُ. كانّك لا تفهم أشواقي يا سيّد الأشواق للسعات سجائرك في هذه اللحظة. كأنّك وكأنّك، تُرى هل تعرف هذه الكأنّ أنّها حرف متشبّه بالأفعال، وعاجز عن تكملة فعله إذما قرّر أن يفعل؟ أعترف لنفسي بأنّ تشبُّهها الدائم يجعلني أكنّ لها عداوة حقيقية وأنا معك؟ سرا أشاكسها حين تدير رأسك نحو البحر. لماذا تعدو عيناك إليهِ، حين أُعلّق علاقتنا بأعناق الأفعال؟ هذه حقيقة، رغم إنكارك المتواصل لها. علاقتي بك ظلّت مشبّهة، لم يستوف فعلها شروط تحققه.

لا أحتار كثيراً، حين أقرر عدّة مسمّيات، وألقي بلومي على البحر دائما. بل يخيّل إليّ، أحياناً، أنّك تتوحد معه دوني، وتفضّل عليّ زرقته المائجة، وتفتّش لجوعه عن استغاثة نورس، كأنّ النوارس لا تستغيث في أقفاص صدرك. هل تطلقها وأنت تنازع الموج ملكيتها؟ ليس ضروريا أن تتخطفاها يديك، يكفي أنّ نظراتك الساهمة تسحبها، كما تفعل كلاب البحر لذيولها، وهي تجرّها خلفها؛ كي لا يأكله االسمك.

أين ذهب؟ «سقط سهواً خلف جنازة المغيب الحاشدة شوقي»، تقول، «خانَك مع الصور». أضحك أو أحزن. أقول

إنّه جزئيَ الباقي بعد أن تذهب، وأظل مع الشرفة الفضفاضة وأصوات الكلاب الضائعة في الحارة. هي أكثر ما يزعجني في مسألة عزلتي. يؤرقني مثلا أنّها سبع سنين كاملة تعوي بنفس الطريقة، دون أن يعثر عليها أحد. وأنّ ألسنتها، مهما استطالت تعريفا بها على الناس، لا تجمعها بأصحابها أبداً. أين ملاّك الكلاب، وكيف لا تستغل وزارة الإستيعاب مواهبها أوقات الحرب. كيف لم تستبدل صفارات الإنذار، مثلا، بنباحها؟ عواء الذئاب أيضا تحت الوادي، لا أجد له تبريرا، ولكنّه خلافا لأصوات الكلاب يبهرني دون توقف.

كأنك لا تعرف، «دعي الأمور على سجيتها»، تقول. كيف وأنت تعرف رجف أظافري وهي تدوّر أرقامك التسعة، كيف تتوقف عن النبض فجأة كي تتأكد أنّها لا تحتلّ نبضك. أترك صوتك معلقا في الهواء خوف أن تحرقه أنفاسي. أقول تكفي السجائر التي لا ترحمها، لكنّي أعرف أنّك بعد تلك الحركة الخائنة، ستطارد أرقامي وتجلدها بالسباب حتّى تقبض عليها متعلقة بصوت غيرك. لا تكفّ حتّى تسلم نفسها طوعا ودون نقاش، وتطلب منك المغفرة. سيتعالى رجمك للدنيا بكلّ أنواع الموبقات؛ إذا هي رفضت.

«الغفران لا يطلب بتلك السهولة»، أهمس بجزع «ستكون عواقبه أمرّ في القلب». لا أتوسل، لن يبقى في صدري غير الضجر. كأنك وكأنّك وكأنّك، لا تفهم ان الشجار استراتيجيتي في قلب نظام العشق وتحريك دمه. ألجأ إليه؛ كي

أغيظك، وأدفعك لقتلي بالفراق. يجب أن أنقّي روحي من وزر أفعالي، وللآن لم أحقق شروط اكتمالها مرّة واحدة. وربّما من المفروض، وفق مذاهب العشق، أن أتعذب في سرّي قليلا، أنسحق وأتآكل.

نكهة هذه الذكريات، أين تذهب؟ حصار المدينة لن يرفع خلال يومين. أراك؟ كيف؟ أبحث عن غيرك؟ كيف؟

سائد، تعرفُ أنتَ أنّ طفلة تعبد مفاصل اسمك لا تكفّ عن اللّطم والنّواح، وتعفير وجهها بالرماد، وهي تدفعك لشنق الأيام الجميلة الّتي ستعيشها معك. إنّها تحتال على قسوتك. قلت لك: إحذر دهاء النساء، فابتسمتَ، ولم تفهم أنّني أعني نفسي.

في وقت متأخر من الليل، دققت بابي معلنا غباءك وضراوة قراراتي. تتراجع الطفلة وأنت تمشي بخطوات جوعى للعودة. تصفق لك، وتسخر من كسبها للمعركة. «سادية هذه المرأة؛ تريد أن تتعبّأ الوساوس»، تقول وتقفز من مكانك. لقد أفلَستك من العذوبة. تغادر محتجا، فتضرب فخديها ندما. إنّها، وأنت تبتعد، تدفن أجزاءها بالنقمة على الدنيا والخوف من شرفة عريضة واسعة، لا تلتصقُ ببلاطها غير طاولة صغيرة مكسورة القدم وكرسي ضيّق من غير متكأ.

هل توقف الكلأ عن النمنمة في قلب القائد الذي لا يغزو غير نوافذ المدن الجميلة؟ «لا يسطّر وجودي خارج تلك

المدينة أحد، الضياع فقط يأكل حنجرتي» قلت، وأنت تتخيل الحصار خطّة إبادة.

انزلقت كعوب النساء عن الأرصفة، نظرات المراهقين عن نهود الصبايا، خيوط الجرابات الشفافة، سلال المونة وعربات الفراولة. وانزلق دمعي تحت سترتي حين رأيت هذه الأشياء تنحسر عن مشهد المدينة. لماذا غادرت، وأنت تعرف أنّها لعبة تلك الطفلة الّتي تحبّ نعيق البوم وغناء الحجل؟ غريب كيف اندمجت بهواية تكسير أضلاعي المشاكسة؟ لم يبق منّي سوى هيئة وحيدة؛ بردانة داخل الفراش. تغادره تكرارا كي تتفقد أوكار الجنّ في زوايا البيت. يبدو لا يحبّ اليهود تماما، لذلك يستوطن زوايا بيوتنا المحاصرة، أم أنّه إيماننا، الساذج، بالأقدار ولو صدرت عن جناح جنّي.

«لا يخضرُّ بعدَك غير الكلام العاق»، تهمس لنفسها؛ بانفعال حقيقي هذه المرّة. تُمَسْرِحُ هيئتها من خلال أضلافِ النافذة، وتحاور القمر. تفرد أجنحة يخيل إليها أنّها أعلى من قامتك الرشيقة. تهز أذنيها، أكثر مما يجب، «ستنتصر بقامتها المهزومة عليكَ». تصير عدوا بتلك السهولة، ثمّ تلقي بنفسها إلى الجنّي وتبكي بصوت عال. لماذا، سائد، لا تدسها تحت أصبعك، وتفركها تحت الشمعة المتوهجة لتراها بدون مساحيق، حارّة مثل شرنقة وليدة، وتعلّمها أن تصمت وتخرس لسانها؟

تربطه إلى إحدى أسنانها الخلفية. جرّب دون ان تنظر لأنّك ستساعدها على نزف هذا الكبرياء القاتل. سائد، يجب أن تساعدها في التغلب على عقد أشتال التبغ الخضراء الّتي حثتها عمّتها على الحذر منها. وهل يفترس التبغ الأخضر ملابس الناس؟ بدأت تجمعها وتتعجب. حين صرصرتْ أذيال ثوبها القصير، وصرخت بها من بعيد، ألم أطلب منك الحذر؟ لم تفهم. اعتقدت أنّها تغوص معه بالوحل. رفعته أكثر، فانطلق الصراخ عاليا كأنّه يريدها أن تتفادى كارثة.»أنزليه على فخذيك يا خائبة، يراك الرجل المقرفص هناك»، قالت، وأشارت بيدها المحنّاة إليه، وهي تخرخش بأساور الفضّة. كان منغمسا بجمع الأشتال ذاتها على الطرف الآخر للحوض، «لا يلقي بالا يا عمّتي إليّ»، احتجّت. «ماذا يدريك أنت يا غشيمة؟» لوت العمّة شفتيها على شكل ذنب عقربة، وهي تعدّ تجاربها. «لكن هذا الرجل شايف نفسه مهم ويريد صبيّة مهمّة»، همست لنفسها. أكانت تخاف عليها من حركات أصابعه السريعة في قلع جذور الأشتال، أم أنّ لمساته غير المقصودة لأطراف ثوبها الأبيض أثارت فيها الغيرة؟ كانت ساقها ترتعش كلّما لامسها ظاهر يده. حين يأتي على آخر شتلة في التلم يضرب كوعه بخصرها.

كان أسرع منها في جمع التبغ، وأجرأ في التآمر على حركة عابرة ينتشي بها كلاهما تحت سمع العمّة وبصرها، وكانت هي تتآمر بعض الشيء، لا تفزّ مباشرة حين يخطفها مولّد الكهرباء في مرفقه، وتصرخ بارتعاش.

العمّة بعيدة؛ لا تلاحظ أنّهما يعلقان بحركات غير مقصودة، وأنّ الأوراق الطويلة الخضراء تداري سرّهما. التفّت التفافا غريبا وعزلتهما عن جموع الناس المنتشرة بين الشتيلات. هل أعجباها فحفظتهما من الوشاية؟

الشتيلة حكيمة وتفهم أن ملم واحد من الإنحسار أو الانكشاف يعني فضيحة. وكانا متأكدين، هي وذلك الرجل، أن تضليل العمّة أمر سهل للغاية. هي، بعد السذاجة الّتي أعلنت عنها الفتاة، متأكّدة من عدم استظراف أحدهما للآخر. «فارق الجيل سبب منطقي لعدم تآلفهما»، اعتقدت. كان يتعدى الثلاثين، بينما لم تبلغ هي التاسعة عشرة. واسمه يوسف؛ إسم موغل في العتاقة. حين نادته بصوت خافت كي يحمل عنها الأشتال الّتي تختنق داخل ضمّة يدها، خَجِل. ضغط على أصابعها، بقوة، ورّدت وجنتيها وصيّرتهما بلون شقيق الجبل، فأفلت منها كل ما جمعته طوال ساعة فوق أشتال أخرى يانعة لم تقطف بعد. وحين ضاعت يداها بين السيقان المتكاتفة عثر يوسف عليها صدفة فتصافقت أطراف ثوبها، وقفزت وجنتاها من مكانهما. حدث ذلك بسرعة عجيبة تمكنت، خلالها، من لـمّ اصابعه والهرب تحت ادعاء كاذب «مبلّحة من العطش وبدي جرعة مي يا عمتي، أين الكردل؟»

تحت الرمّانة غزيرة الفروع، أغرته من بعيد بطرف ساقها البيضاء فسبّ أيّام التبغ ومواسمه، وتحركت تفاحة آدم عصبية في عنقه. يوسف هذا رجل وسيم، لكنها للحق لم تكن

تريده، ولـم تفهم حتى ذلك الحين معنى أن يريد رجل امرأة. لكنها، منذ دعك اصابعها، والتهبت أطرافها بنشوة أغرقت سروالها الداخلي بسائل لزج، أحسّت رغبة شريرة في إثارته حتى الموت وتركه بعد ذلك لجهنم. ألم يعرّفها على شيء يشبه الخطيئة؟ أحسّت من ارتجاف ساقها وفخذها بعنف. وردا لاعتبار كائن الإثارة الذي انتشر؛ كاسحا ومرغما أعصابها على التفتت، أرادت أن تشوي جسده بفلفل حار وتذهب.

تستحضر الآن هذه الحادثة كي تتأكد، أكثر من ذي قبل، أنّها شقاوة ذلك الجيل الرجيم. ثأر من رجل خلبتها زنود نشوته. وبرغم تورّطها، لم توافق أن يقتص لها من تعففها (الكاذب!). لماذا لم تتحسس سروالها الداخلي لتعرف كم هي محمومة، وتلفّ بها الدنيا تلفّ دون توقف، حدّ التهاب رغبتها بفيروس قد ينتقل إليك إذا لم تقرر الآن، وحالاً، إعلاء باطن كفّك لصهوة رخامها الناهد وإسكات المناورات المحتدّة تحت جلدها؟

سائد، كأنّك نسيت أنّ شمعة تشتعل في الكرادور لا يمكن أن يطفئها غير الكبرياء حين تعتليه الريح. وتجرؤ أن تحتج؟ أنا من أضاءها فكيف انطفأت؟ «مثل كل الحمقى وخفيفي الظل وكل مجانين الدنيا والعقلاء مشتاقة إليك»، بكت من حرارة إحساسها بالشوق. «يا للغرابة، أليس فيما أقول ما يدعو للعجب؟» تابعت كلامها، «أحبّك، هل ستقاصص جسدي على هذه الكلمة المقلية بزيت الوله؟ ولو كنتَ الآن معي كنت

ستفني سجائرك كلّها تحت الجرائد، وأعقاب كلامك في زاوية لـم أكتشفها في حبر مرفقي أو سرّتي؟ لماذا لا تقل: أحب هذا الشوق المندفع مثل سيل يشلّ يدي فلا تصل لأيّ مكان؟ «تترك سيجارتي كمتسولة يتيمة لا تعرف أمام المارة أحجية السؤال»، قال.

«من أين جئت، إلى أين أنت؟ حتّى متى؟» قالت، ورام الله جواب صغير على كلّ الأسئلة الكبيرة. «أحبّ هذا الشوق الكاسر الّذي أحير معه الإجابة»، قال، ومجّ فم السيجارة.

«أحبك سائد، هل سترحم حبّي بارتكاب مغامرة هذه الليلة؟ هل تقصف حواجزهم وتأتي؟» «أنت امرأة شجاعة، هل أتوقع أنا منكِ، كما دائماً، خروجا عن طوق المألوف والعادة؟ هل ستفكّرين بسفرة طويلة تصلك بضراوة ما أعانيه الآن، وتأتين بأشواق لم يفرمها سكين الخطر؟» يرتجف صوتها، «أخاف أن آتيك امرأة أخرى، أذاب مشاعرها احتراق الوقود المتسارع، أن أطلّ امرأة غيري مصرصرة الأطراف، استنزفتها حرارة الأرصفة.

كيف ستحتفل بمجيئي إليك؟ «كما أحتفل بطيفِك كل يوم؛ ممسوحا مثل دمية قطن، عجرا مثل رأس ثوم»، قال. ثمّ استدرك «بل متوردا مثل بيت من الفرفحينة». «ومن سيرحم امرأة تأتي في ليل حالك كهذا، ماطر بالشك تتعثر بأطراف فستان مطرز بأزهار شبيهة بما سيزهر في عيون الجنود حينذاك

ومكان شواربهم، وبأجزاء الصمت الفالت مثل نسر، وبما تبقى من وطاويط العتمة؟»، قالت. «ولماذا أمور كهذه، هامشية، تثير شهية تساؤلاتِك؟»، قال. «لأن جسدي، أعرف، سيثير شهية تساؤلات لن تنتهي بطلوع الفجر؛ لن يفهموا أنّك آخر المسالك الوعرة تنتظر. لن يفهموا خطورة أن يتورّط عاشقان بشوق لقبلة»، قالت. «قد يفهمون»، قال. سأقول لهم: أناديه وتسمعون، وحين تتأخر في الردّ سأقنعهم بأنّ صوتك يختبىء خلف الصدى»، قالت. «وإذا استفزوا حشمتك؟»، قال. «سوف أدّعي البلادة وأقنعهم ثانية أنّني أسمع صوتك خلف الأشجار وأصوات الواوي، سأهديهم بذار القرع الّتي جلبتها معي كي نسدّ السعرات التي نفقدها بين لهاث القبل. «وكي تسلّي أوقاتهم عنّي وعنك، وعن قبلة سيروا دخانها يعلو كثيفا بعد شبابيكهم المفتوحة للهواء والنار معا»، قالت. «نحن نحلم ككل مرة يحكمنا العجز»، قال. «ككل المقموعين»، قالت. «ككل اللاجئين»، قال. «ككل المتورمين بأحكام المنافي»، قالت. «حجروا على كلّ شيء، أفلا يحجرون على حقي في طيّك تحت إبطي، كسجلٍ، والعبور بك إلى غرفة في جيب القمر؟»، قال. عدت تحلم، قالت. أحبّك، (تهجّأتها ثانية)، أحبك سائد، أحبّك. كيف أفاوض الجنود بضرورة أن يلمس واحدنا بنصر الآخر؟ «لن يقتنعوا، أعرف عقولهم»، قال. إذا تعالَ نعود للحلم/ تعالَ نشعل أسلاك الهاتف بما يمكن أن يعوّضني أنا وأنت عن لحظة موت، تعالَ نجازف فلا يشمون غير الرائحة، قالت. تعالِ نسكر ببخور المحبة وندوّخهم بخمرة

وهمية، **قال.** ويقتلوننا؟ لا يقتلون امرأة خلف بحر ورجل فوق جبل/ قد يفعلون. نقتلهم نحن بالرصاص/ لا يا أهبل بالغيرة/ مم؟ من قبلة حرقت أسلاكا بطول كلام حدثوا به زوجاتهم وحبيباتهم طوال أسابيع فارغة، لم تمتلىء بغير أجنحة الذباب وقرصات الدبابير. وحين يحتدون؟/ سنجازف بقبلة ثانية، تجبرهم على رفع الحصار لساعة؛ كي يستبدلوها بأسلاك جديدة يتصنتون منها على خطة لقائنا القادم. وقد نستغل فوضى حواجزهم فنتبادل من بعيد شهقة، صرخت بجذل/ ثم نعود للاختباء، همس باكتئاب. خلف الأسلاك؟ أجل كالمرّة السابقة خلف الأسلاك. فمتى سنلتقي أذاً خارج حلم أبله؟ حين ستحترق أسلاك المدينة كلّها، وتطلب السلطات نجدة.

الآن، وتسمعها دون أن تدفن شفتيك في قلبي وتنام؟، قالت. ثم أردفت: كلمة صغيرة حمقاء، سأردّدها وتتحول بين أصابعي إلى رماد. يلزمُني من الحب ما يَلزمُني من الحقد لأقنعَ من يسأل عنك أنّك ذهبت إلى الموت متأبطا ذراع الغرور، وذنبك الوحيد أنت أنّك لم تصدق أنّ أصابعي محشوة بديناميت أكّال. سوف تنام أنت، وكل ما سيشغلني بعد ذلك ما سيتقول به من سيراك عن سر اختفاء شفتيك. «قضمتها الغولة أنا»، سيقولون. لن يفهموا أبدا أنّها أشواق نازحة حطت كسرب جراد مفاجيء وقرضتها.

امرأةٌ جميلةٌ جداً..!

أسبحُ في عَرَقي.. وصوتي يستحيل إلى دوامة شَبَق. لا أعرف كيف يحدث أن أبتلع ذاتي أو تبتلعَني.

لعلّني أهذي، فّالفِراشُ الساخنُ عادة يلسعُ أوردةَ القلبِ بقصاصَةِ أولى، بلّلها أوّلُ رجلٍ سبحَ الجسدُ البكرُ في أَبخرةِ عرقِهِ وعشقَ ملوحتها. أهذي بالجملة القاتلة. تسَحَبَتْ مِنْ عُلبةِ السَّردينِ الصَّدئةِ ونشق فوضاها الأثاثُ وتحلَّلَ من غباره. مشى بقدميه العاريتين فوق نقوش البلاط الأملس راقصاً تانغو لحظة ما بعد الموت. كانت، دون شك، تتنازعُهُ أحاسيسَ لذيذة. ارتطمت إذّاك بجدارِ النحاس، تكسَّرت تحت خطوط خطواته الواقفة خلف قلبي. عدّت نبضات حذائه وانطوت. استلقت في ظل الثواني تحتمي بالتماع أرقامها. وخزته في ذاكرته، وهوت تحت سرتي.. امرأة جميلة جداً، أفرجتْ عن أسنانٍ بيضاءَ ناصعةٍ ومرتبة لم تنكشف لامرأة قبلها.

كان اسمه محمّد، لكنَّهُ لم يشبه أيُّ محمد عرفَتْهُ من قبل، ولم يأخذ من صفات نبي البشر، محمد، شيئا خلاف وداعة متناهية رشَحَتْ من نظراته الحالمة. تحت العدسات الطبيَّة المدوَّرة نامت

سكينة قاتلة. ارتحلت، أحياناً، إلى أطراف شعره الأسود، كَما اعتادت دوائر شعره المجعّد أن تتحدث عنه. كيف؟ لا أعرف تماما، لكنَّها سَمعَتْهَا، غير مرّة، تتداول بصوت خفيض قصص مغامراته الخرافية، هكذا سمّتها. ثمّ صمتت، حين لاحظت أن أذنها الصغيرة تندس، حدّ الالتصاق، بحقل أقواسها ذات الليل الدائم .

أحبته، هكذا، رغم أَنَّهُ خيّب ظنّ والده الذي اكتشف في مرحلة متأخرة من مراهقته، أنّ محمده لم يكن أكثر من زير نساء متمرّس. يتنقل بين نهودهن كما تتنقل النّحلة بين أكواز الرمّان الناضجة. ولأنّها لم تقتف آثار ماضيه، لم تقتنع بصواب رأي الوالد. كان منطق الحجج الهامسة لِتُلَيلاتِ شعره اللعينة لا يقنع رأسها المخمورة بعسل روحه. ثم أنّها حين واجهته بما استرَقَهُ سَمْعَها من وشوشات والده. أنكرَ بدايةً ثمّ توسّل، ملقِياً باللائمة على نزق المراهقة. بعد اعترافه العفويّ بالنَّزَوات المزعومة، فضّلتْ أن تغفرَ لهُ صفحةَ الخيانات الصغيرة الّتي أكلتِ السُّطورَ، وأكلَتْها ربّما.

كانت مفتونة به تماما. وكانت تتباهى أمام مرآتها حتّى بتمزيقه لملابسه الجديدة، على طريقة انقلابيي التاريخ. تقول، وتفاجئ صديقاتها، وهي تبتسم: لحذائه عيون قطنية تتكلم وتضحك وتبكي، وأحيانا تتفلسف فلسفة غريبة، صعلوكيّة قليلا. لكنّها توحي لها بكتابة رسائل حب ماجنة، لا تشبه غير ما يقوله حين يقبّلُ شَحْمَةَ أُذُنِها.

خرمشتها الكلمات تحت الحفرة اللحمية.. امرأة جميلة، جدا، نزت شوقا. لم يسبق لرجل أن أفصح عنها بمثل روعته مفاجئة، مدهشة، لزجة في استسلامها الساحق، ولن يقولها ربما. هجست بمقاطعها، مليًا، وحلّقت لساعاتٍ بين الزجاج المبحلق فيها بهستيريته المعتادة، حين لا تعجبه هوائيّتَها المفرطة، وأطلسَ سريرِها المائع. لا يعجب المرآةُ أن تفوّض شفافية لونها لهذيان المرأة. أعادت مقاطع العبارة إمرأأة.. جم.. ي.. لة.. ج.. د.. دا. ليست تدري لماذا تعلّق تلك الأهمية على جملة مثلها. لكنّه بعد أن ألقاها لِقَبَّةِ قميصِها المرتبك ظلّت محلِّقَةً لدقيقة طويلة بأنفاسٍ غنّت لها حنجرةُ الغرفة. أنفاسه أو أنفاسها لا تعرف، لكنْ منَ المؤكدِ أنّهَا أنفاسُ الجملة. لماذا انفقدت هكذا، كأن رجلا لم يغازلها قبله، وفقدت كل ارتباط واع به وبنفسها وبالوجود؟ تساءلت وشردت. حتى فكرة انكماشها المهمل بين ذراعيه الفارهتين. لم تتنبه إليه؛ كأنّها في حضنٍ غيرِ حضنِهِ. ألِأَنَّهُ قالَها بسذاجةٍ وَطفولةٍ، لا تُقِرُّ بدوافع ولا تدين لمسلمات. تمتمت لنفسها بهمهمة غير مسموعة، يقولها كأنّما يقبض عصفوراً لمحه يزقزق في زاوية معتمة، فنزع منه صفيره وطيّره، مكتفيا بالنظر إلى بهاء قفزاته.

ليس تحسّرها على عدم امتلاكه هو ما يُذْهِبُهَا إلى التَضوّع بمخارج عبارته. ليس لتستبقيه. لا، بل ربما لتظل مطبقة عليه في قفص صدرها مثل الكناري الذي تطبق على فضائه في غرفة نومها. أللّعنة ، ما الّذي يحدث هنا؟ لم تكن أبدا على هذه

الدَّرجةِ من الغباء لسر ما يفتنها بالرِّجال.

سنة وبضعة أشهر على وجه التقريب وخطواته الواقفة خلف قلبي تردد الكلمات القاتلة للهواء الذي أتنفسه، للأماكن التي أرتادها، للناس الذين ألتقيهم، لملابسي التي أتركها معلقة على حبل الغسيل وأعود من عملي لأجدها ترقص على نغم الحروف. وحين أقلعتْ خطواته عن ترددها تولى حذاؤه المهمة. أصبح يتهجاها، بمناسبة وبغير مناسبة، حتّى أغرق بها غرفتي. في المرّات القليلة الّتي نسيه تحت الوسادة وخرج إلى الشّاطئ حافيا أغرق بها غرفي. تابعتُ استمتاعه باحتضان الرِّمال الرَّطبة لِباطنِ قدمهِ الكبيرة من أضلاف النّافذة. لكنّي كنت أحاول التخلُّصِ من تعلُّقِ الحروفِ بِأَذيالِ فستاني، وأنا أُراقبُ النِّساءَ اللّواتي يتجاذب معهنَّ الضحكات، العالية؛ دون خجل. ظهورهنّ الثَّقيلُ، فسّرتُ، سبباً لإقلاعِه عن قتلي الليلي تحت ضوء القمر بتلك الجملة. كلّ ليلة يتسلل القمر من الشُّرفةِ، وينتظرُ معي لحظةَ تغيّم فيها وجوه نساء وهميّات، رَصَدتْ أضلافُ نافِذَتِنَا نَعْفَ محمّدٍ لملابسهنَ الشفّافة.

للحقيقة، حين أَضعفَ الإنتظارُ بصر القمر، وأضرب عن التسلل، وجدتُ في حذائه المنسي عزاء. أصبح من غير الممكن أن أتقبل يومي عاطلا عن مخارج كلماته تلك. وكان يجب أن يدّللني أحد ما، ولو كان حذاء، بمقاطعه السّاحرة. حاولتُ أن أقنعَ نفسي مرارا بأن شيئا لم يتغيَّر، ومحمدي لا يزال متأثرا بأبعاد عبارته ومهووسا بسحري، كأول مرة التقينا في مقهى

«كابولسكي»، فلم أقتنع تماما. «على العموم، مسألة انشغاله بنساء الشاطىء أمرٌ هامشي لمن يعرف أن الرجال يتمرنون على الحب مع العابرات، كي يخلبوا ألباب حبيباتهم بعجائب الكلام»، طمأنتُ نفسي شأن امرأة عارفة. وحتّى لا أهاجم أفعالي غير السوية، لحظة طفر، لجأتُ لأسلوب، لا بدّ أن أعترف أنّهُ أعجَبَني في تحليل الأشياء؛ ساوى ما بين الحذاءِ والخُطُوات، ما دمت مصرّة على أنّهما مترادفان لجذر واحد بدايتُهُ على سنِّ محمدي. اعتقدتُ أنّهُ شرعيّ، تماما، أن ينوب الحذاء عن الخطوات أولا، ولأنّهُما يحملانِ جسدَ محمدي، فمحمَّدي والحذاء شأن الخطوات كلٌ واحد. لذا؛ لا فرق بين أن يردد الحذاء الجملة أو يرددها هو.

ولا بدّ لي أن أبوح لكم بسري الصغير؛ لأن ضميري سيؤنبني إذا أنا أَحجمتُ الإفصاح عن عِظَمِ النَّشوةِ آلَّتي كانت تضربني، من وريدي حتى وريدي، حين يناغشني بها ذلك الحذاء آلنّادر. ربما أعظم مما لو ناغشني بها محمدي. وحين أضربَ الحذاء، هو الآخر، عن ترقيص يومي بالكلمات وجدتُ نفسي في مأزق حقيقي؛ لا سبيل للخروج منه.

حاصرني هاجس تلك المرأة آلجميلة جداً. واعتقدتُ أنّهُ لا بدّ سيودي بيّ إلى التّهلكة. حاولتُ أن أهدّىء من روع وحدتي. قلتُ لنفسي، بثقة: أيُّ رجل مهما بلغت قدرته على الإحتمال، لا بدّ، سينهار بسهم واحد من سهام عينيَّ، سيأسرهُ كلامهما الصَّعب. أصابني مس من غرور لم أستلطفه، اضطررت معه

أن أدلل نفسي بنفسي دون حاجة لمحمد أو حذاء.

وكنتُ كلّما سرحتُ بأوراق الشَّجَرَةِ آلعاليةِ الّتي قرَّر صاحبُ النُّزُلِ اليهودي قَصْفَ قَوامِها، قَصفَ اللهُ عمرهُ، لمعتْ بينَ أوراقها الجملة الملعونة برّاقة، ريّانة كأنَّها ولدت للتو. ولَستُ أدري لماذا أحقد على شموئيل، بشدّة، كلَّما فرد القمر طُرَّاحته البنفسجِيَّة على حفة آلموزاييك بدل أوراقها الواسعة. عجيبٌ شكل عروقِها السّوداء. يخيف شحوبها الوحوش، فكيف قرَّر شموئيل النّبيه أنَّ تكاثفَهَا السَّريع سيجعلها مقرا لضباع اللّيل وأبناء آوى؟ غضبتُ من ذكائه. لا بدّ ستقفِزُ مِنَ النَّافذةِ آلغربيَّةِ وَتَأكُلُنِي، أضافَ كي يُرهِبَني. لتقفزْ، يا خواجة، أعليّ أم عليك؟ طراحة القمر عريضة، وقد تنعس فوقها.

لكنّه خاف عليّ. لماذا لم تخافوا على جدّي لأبي حين أحرقتم بيته، وأخذتم يافاهُ؟ تصايحنا ليلةً بحالها وصباحاً كاملاً، ومنتصفَ نهار، ولم يتراجع. شتمتُهُ بلؤم لم يعهدهُ فيَّ، وَتركْتُ الشَّجرةَ لِمنْشارِهِ وغنائِهِ الكريه. حينَ عُدتُ وجدتُ نافِذَتِي عارية يغازلُهَا الموج، بِفُحشٍ، فألبستها ستارة وتخيَّلتُ أنّها أيّام، وتفزُّ ثانية بأوراق أجمل وأرحب. وبرغم تلصُّصي، اليوميّ، عبر نقوش السِّتارة لم تفزّ بعد أسابيع قليلة غير بومة. لمحتُ ظلّها يعاكس قطع الأثاث الّذي يقابلها خلف آلسِّتارة. وشُدِهتْ.

كيف صفعني صوتها على هذا النحو في ليلة يَرْهَبُ النَّاسُ فيها صَدَى أحاديثِهِم؟ كانتِ آلرّيحُ شديدةً تَسْحَجُ بكلِّ ما

يُصادفُهَا. لجَنُ الغسيل في نَفْخَةِ البيت آلقِبلية سقطَ مباشرة حين تخيَّلها. وَجدتُها ساكتة كحجرٍ ميّت، كأنّ البرد يبّسها.

جريتُ إلَى النّافذة وفتحتُهَا دون اعتبارٍ لِلعَواقب. «لقد وقعتُ على شيطانةِ خطِرة»، همستُ لِنفسي حين اقتحمتْ فتحة النَّافذة وأفزعتني بأغنيةِ المرأةِ الجميلةِ جداً. ردَّدَتْها، يجوز سبع مرّات متعاقبة وهي تلفُّ الغرفة برجليها المجروحتين، ولم أنبس ببنت شفة. أذهلتني جاسوسيتها، «حتّى جهاز الأمن القومي لدولة اليهود يفشل، لو جرّب أن يعرف خصوصية جنوني الصغير» جَهرتُ على مسمعها، بانزعاج، فوجدتها لسوء حظي تعيد جملتي الطويلة بطلاقة جعلتني في مأزق حقيقي.

الساعة تتجاوز الواحدة بعد منتصف آلّليل بنصف ساعة، وهمس الأسرّة يصل العمارة بحالها، فماذا سيحدث إذا استفاقوا على لغط بومة؟ أغلقتُ أذنيّ بسبابتيّ، وقدتُهَا إلى الدّرفة الفَارغة من خزانةِ الملابس. «مُخزّقة منَ الجانبين، لا بأس، لن تختنق قبل مجيء الصَّباح». فجراً، أفرجْتُ عن بوصلتيها فتشبَّثت بي أنشودة المرأة الّتي أحبُّها؛ نقيّةً.. سلسة من منقارها الجميل.

أفرحتني البومة، رغم أنّ غناءها كان أقرب للنحيب. وضحكتُ حتّى احمرّتا وُجنتايّ، كأنّما غافلهما جنّي وسكب فيهما ماء ورد. ولا بأس من الإعتراف بأنّني خجلتُ قليلاً؛ لأن مخلوقة صغيرة مثلها تستطيع أن تفعل ما لا يفعله محمدا

كبيرا. ردّدْنَاهَا معا؛ أنا وهي، مرّات طويلة حتّى تعِبَتْ. رفرفتْ بجناحيها وطارت، مخلفة بعض ريشها الجميل تذكارا. أمّا أنا فدفنت وجهي بيديّ وبكيت؛ لا يعقل أن أبقى أسيرة جملة قالها مجذوب، وتركها تعبث بي على هذا النَّحو. وقرَّرتُ، أن أثأر من لامبالاة محمدي.

مرّ أسبوع طويل قبضتُ عليهِ عند نهايتهِ، قريبا من ملابس النِّسوةِ الخفيفة.. احتجزتُهُ في غرفةِ الجلوس؛ هي أفضل الغرفِ للمنطقِ. أقنعتُ قلبي، ودبَّستُ الباب آلبحري بالقفل. «أعترف الآن أيّ النِّساءِ أجمل منّي لتهملني هكذا، وتكفّ عن تدليلي؟» ذُهل، «طبعا ولا واحدة». نشجتُ، «أيّها الخائن، إذن كيف تقاطع عبارتك المجنونة كلّ هذا الزمن؟» ارتعدَ «أُخونْهَا؟ كيف؟» بكيتُ بكاء حقيقيا أَشْفَقَ على حرارتِهِ «شو جنّيتي كنّك». نشجتُ بشدّة لأثير عاطفتَه «من سيدلِّلني، ها قُلْ، الشّجرة، الضبع؟ الببغاء؟» اتّسعت عيناه خلف الإطار لأسود، «وَل هَاي جَدْ، شُو صَرْلِكْ؟» مَرغتُ كتفه العارية بدمعيَ المالح، «قتَلَتْني امرأتُكَ آلجميلة آلغائبة يا محمّد». رقَّ قَلبُهُ، «ماذا أفعلْ لِتعودِي عصفورتي الضَّاحكة؟» زعقْتُ دموعاً أسلتُهَا عمداً فوق ركبتيه، قُلْهَا.. قُلْهَا.. بصوت عالٍ لتسمعها الشَّجَرة الّتي فَرَمها شموئيل أيضا.. قُلْ أَنَّنِي آلمر.. أة آلجَمييي..لة جد..دا..دا ج..دا . قُلْهَا وَاحْتَضِنِ المخدّة كما فعلتَ أوّل مرّة. لم يتمالك نفسه من الضحك، «قل إنّني امرأتُكَ آلجميلة، قُلْهَا بِوَلَهٍ، بِانسِحَاق كما أُحِب!».

في تلكَ اللَّحظةِ فَقَطْ فَهِمْتُ مُعَادَلَةَ حُبِّهِ لي. قضيّة بمجهولَيْن: الأول؛ هو بطلُه، والثّاني؛ يفتّش عن جذره. نقّطَ الحنانُ من عينيه تحت العدَسَةِ الشَّفَافةِ؛ مثلُ قَطرِ النّدى حين يزحفُ مِنْ أَهدابِ الفجرِ على مهلٍ. حدّقَ بفتحةِ قَميصِي السَّائب، ارتدَّ إلى الورراء وعضّ شَفتَهَ بِقُوَّة، ثمّ علّقَ رائحةَ عِطْري تَحتَ قَلبه. سريعا، قبل أن أفكّر.. «عِدْني ستقول»، همستُ لَعُشَيْبَات قلبه. رَفَعَ وَجْهِي مُقَابلَ أسْنَانِه الجميلة وهمس، بابتسامة حائرة: وبعدين! إفهمِي عاد، إفهمي هَايِ الجُمْلة هيك بْتِيجِي لَحَالْهَا، بَعِلْ، بَقْدَرْش أَقُولْهَا وَقْتِ الطَّلَب.. فْهِمْتِينِي حبيبي؟

انتزعتُ وَجْهِي من يدِهِ، وصرختُ «لأ حبيبَك مِش فاهم، بِقْدَرْش يِسْتَنَّى مَزَاجَك، فكرتْ تفَرِّحْنِي روحَك، مش صحيح؟ «سلمى، إنتي عاقلة، كيفَ تَتَعلَّقِينَ بنزوة». «نزوة؟» استنكرتُ. «إذن، أنا بعضُ النِّساء اللّواتي يقذفهنَّ الموج إليك مساء! قُل نعم ، لا تخجل، على العموم لم أصادف رجلا يعبّر عن خجله بدماثة أقل!».

عَلَّقَنِي تحتَ قَلبه ثانية، وقبّلنِي بوَلَهٍ مفاجيء. كنتُ سأتأكد أنّه لا محالة سينطقها، لولا أنّه استردّ عقله سريعا، وهمسَ للزُّمردةِ آلمُختبِئَةِ أسفلَ أُذُنِي، «أنتِ سيّدتي وامرأتي الأجمل» واحتجَزَ قِرْطِي وأذني في فمِهِ. أمّا أنا فتابعتُ، «الأجمل ج..د..دا دا، قل، تابع»، حرَّضتُهُ. «خطأ لغوي شنيع»، همس من فم ممتلىء بي وضحك. «الحقيقة،أنتِ أشنع خطأ عرفتُهُ في السّنة الأخيرة». ابتسم، «الأخيرة فقط؟. «ما أبرَدَكْ، وقبلِ الأخيرة؟»، بحنان

طاغ همس،»ساحرة أنت يا سلمى». «ليس قبل أن أستردّ جملتَكَ القاتلة»، قلتُ بعناد. إقترِبَ جداً من قامتى، ولَوَى ذراعي برفق «وِلِكْ شُو، هاي طابُو؟». «أكثر أكثر» ونشجتُ مرّة أخرى. غضبَ، حين لاحظ جديّتي. ابتعد مقطّب العينين. أمام آلباب همس محتجا «لا تتصرفينَ مثلَ طفلةٍ بلهاء» .»أنتَ الأبله، وحياة ديني» استفزتُهُ، وصَفَّقْتُ تكشيرتي بتقطيبةِ حاجبيه.

بعد لقائنا الأخير، قررتُ أن ألقّنُهُ درساً. وأَمْلَيْتُ، ببرودٍ شديد، بُنُودَ قراراتي في باب الحرمان، لن تراني، لن تكلّمَنِي. في باب المتعة، لن أحتضنك إذ ما التَقَيْنَا، لن أغنّي لك أغنية العَاصِفَة. لكنَّ ما خنَقَ ضَحِكَه، تماماً، عدم استجابتي لِقبلاته الحارقة. بعد أيّام، تلاشى ضَحِكَهَ، آمّحى. انزعجتُ قليلا، لكنّي لن أتراجع. لا لم أفهم ذرائعه، سنرى.

قطيعتُنَا، لم يكتب لها حياة تزيد عن أربعة أسابيع ضيّقة، لا تحتَمِلُ مرور سلام ضئيل دون ضَمَّةٍ شديدة. التَقَيْنَا آخرَ عذاباتِها فوقَ رَأسِ السَّنَةِ الخامسة والتسعين قبل الألف الثانية، بشوق لم تعرفه موشّحات إبنِ زيدون واحتراقِ استعاراتها. «أخيرا أنتْ!»، «أنتِ أيضا؟»، بثّ رغبته لحائط النَّافذة. كانَ شَرْطِي أن يَدخُلَ مِن النَّافذة؛ كَيْ يسرقَ قَلبِي ليلةَ القمرِ كما يفعلُ رجالُ الجدِّ. تنبَّهَ لِغَمْزِي وابتلع ريقه. المهم أن يُعَلِّقَنِي بِأَنْفَاسِهِ، المخمورةِ، بِأَسرعِ ما يمكن. بدا نافذَ الصَّبرِ، عصبياً بعض الشَّيءِ.

أَمَامَ ضوءٍ بلون القطيفةِ أشعَلَتْهَا شفتاه القرمزيتين.. تألَّقَ وجهي، بفتنة غير محتملة. لعلَّها الشّمعة الحمراء أشعلتنا مكانها وانطفأت بعد استشراء نكهة الفودكا في أبداننا. تساقطَ ريشُ نشوتِهِ يميناً، شِمالاً، في كلّ اتجاه. بدا مصعوقا بالزغب آلأرجواني آلمتنابت في كل زاوية من جسدي، أنْبَتَهُ ليمونَ الشَّرابِ آلغامض. على مَهْلٍ، تَأمَّلَ جَبْهَتِي والمساحةِ الفاصلة بين حاجبيّ. مسّ بطرف سبَّابَتِه الدَّقِيقةِ خطّ فمي. بلَّلَ شهوتي بوجدِ حُلُمِه المتساقط؛ سطرا سطرا. ثمَّ صرخ، مسحوقا بلسان الأضواء المتعانقة طرف فمي وأسفلَ جفنيّ امرأة: امرأة.. جميلة.. جدا، امرأة ج..م..ي..ل..ة..ج..دا جدا. ثم أقفل عليّ ملابسه.

لكنَّه قرَّرّ، ممَّا استنتّجتهُ، آلإنقطاعَ عَنْ مشروعِ نزواته للأبد، والنّزوة المالحة للمرأة التي تشبهني بالذات. وكانَ من المستحيل لكبرياء المرأة الّتي جسَّدتُ فتنتَها اعتياد الحياة دون محفِّزٍ جديد لِيقظتها اليوميّة شبيه النّزوة آلقاتلة تلك. مكان آلشَّجرةِ الّتي كَتَبَتْ كلمات يومي آلأولى أصبحَ فارغاً أيضا. هل سأحتملُ أن أنظر إلى موقعها دون أن تغرغرَ حنجرتي بالحنين؟ ألن تدمِّرَهَا رجفةُ المرأةِ الفَاتكةِ بكلّ شيء؟ دندنةُ الببَّغاءِ ليست تشتاق إليها، بل إليه هوَ، إلى استلقائِهِ العفوي، رأسه تحت المخدّة ونصف صدره الأسمر فوق البلاط، يتوه في كَعْبَشَتِهَا على الحصيرة البرتقاليّة بعيدا عنه، يخلقُ منَ الكلامِ شعوذة.

خوفي من الببغاء بآلذّات جعلني في حالة آستنفار ومواجهة

مع كلّ أنواع الغناء. أتعبتني العزلة، أيضا. فجأة استحلتُ من نجمة أحذية إلى امرأة؛ نجوميَّتها في حالة انتظار.

كيف تعيش النِّسَاءُ في بيوتٍ مغلقة؟ تساءلتُ. كنتُ أكتشف حقيقة مفزِعَة تعيشُهَا أمّي، وقبائلَ من نساءٍ تعرفهنَّ ولا تعرفهنَّ. لا شعوريا، استحلتُ إلى شيء من قبيل شُرطي مرور؛ يحرِّرُ مخالفات وهميّة بحقّ أفكاره العابرة دون توقف. وهكذا؛ أصبحت كانَ، يَجِبُ، وأخواتِ الضَّمائرِ النَّاقصةِ من نصيبِ اكتِئَابي العصيّ على الفهم.

شهر وأيّام تلبَّسَنِي هذا الحال، زهقتُ معه الدُّنيَا وزهقتني، وحينَ أوشكتُ على فقدانِ صَوَابِي قرَّرتُ أنْ أكون منطقية. امرأة تزِنُ الأمورَ بالقلم والبيكار، بعيداً عن خطوط الهَوامِش. بعد القرار بقليل تساءلتُ بقلق: كَيف أكونُ امرأة منطقيّة؟ هل يوجد امرأة سويّة تودّ هذا النَّوع البغِيضِ من المفردات؟ هي كانت قضيةٌ غير النِّساء. ابتلعتْ قرصين كاملين منَ الريزوبام، وفَكَّرَتْ، ربّما ستلوي ذراع المنطق لِتُصْبِحَ حِجَجُهَا معقولة. هكَذَا يتصرَّفُ رجالُ المنطقِ ونساؤه، ربّما. فالخطوط المستقيمة يتعثَّرُ بها الأسوياء، ويفقد بينها المنطق صوابه. «لا يمكن أن أُمنطق الحياة بمزاج شخصي حاد قوامه المجابهة، ومع تعبير مجرد يريد أن يتنصل من لحظة انغمارٍ بالهَوَس»، صارحتُ نفسي بصمت. ثمّ اعترفتُ لِمُحمَّد.. لا عفوا، لأصابعه المعلَّقَةِ قربَ النَّافذةِ «أنَّني مصابة بداء العناد مع شيءٍ من التَّفَاهَات لِمُجَرَّدِ تحقيق التفوُّقِ». وعليهِ؛ فكّرتُ أن أستعيضَ عن خُصلةٍ

يُبْغِضُها محمّدِي بعادة ستفتنُ الله، أستغفرُ آلله.

أُفرِغُ جملتي الحبيبة من تورُّطِها بالسِّحر. أردِّدُهَا خارجِ البيت، في كل مكان لا يرتاده الآخرون خصوصا شاطئ البحر، مع حلولِ الفوج الأوَّلِ لِجدائلِ حوريَّاتِ اللَّيل حيث لا يبقى غير مفجوعي الهَوَسِ، أمثالي، يحاكون نفوسهم العَلِيلة. صرختُ لِنفْسِي بحماسٍ أوجعَ ساقيَّ، وهي تدور مثل راقصة باليه غير مدرّبة، «على طرحةِ الدّنيا سأنشُرُهَا لِتقولَهَا عنّي قلوبُ العذارى». وكأنما انقفلت فرحتي على وشوشتي، الغريبة، لِنفسي. ودُهشت! لم أكن أعرف أنّ معضلات البشر ليست إلا تورّط حتمي بسوء نَوايَا عابرة.

لِلموجِ حكيتُ قصَّتي، فأَرغَى لِعذاباتها زبَدَهُ، قلتُ: يا موجِ يا موج.. يا سيد هذا الفَوْج وقعتُ في أسر امرأة جميلة جداً، جملة قالها معتوهٍ لامرأة ادّعَى جمالها الخارق، كانت أنا. وبعد أن تدلّهتُ بِهَا، سَرَقَهَا وهرب، وأنا آلمرأة آلجميلة قرّرتُ أن «أُدَلِّلَ بها سحري على مَسْمَعِكَ لأمتليء، وأفتكَ بكلِ شيءٍ؛ حتى بصخركْ. سأردِدُها لكَ، لِرملكَ، لِزبدكَ، لِسمائكَ.. فقد أشبع»، بنبرةٍ قاطعة فرضت رغبتي.

لم يمض وقت طويل حتّى مللتُ هذه العادة، أيضا، فصرتُ أرتاد الشّاطئَ كي أصمت، ويعفِّرُ آلموجُ وُجُومِي فأقهقِهُ مقهورةً، وأمضي. وجومي أيضا لم يطل. فقد انفجرَ، على غير توقع منيّ، بقوّةِ عبوة ناسفة، بينما كنتُ أقودُ سيَّارتِي

السبور؛ قيادتي الإنتحاريَّةِ المشهورة، على شارع البحر. حين بدأَتْ تنهبُ المسافة والوقود بدأتُ، معها، أنهبُ احتياطيَّ من الصمت. زَعقتُ، حتّى انتصرتْ قوّةُ صَوتِي، المتظاهرِ لِأجله، عليه وعلى هدير المحرِّكِ الطّائر. لأكثرَ من نصف ساعة ردَّدتُها بِجنُون وشوق تشحنُهُ دغدغةُ اللّهفة، حتى بُحَّ صوتي وفقدتُ قدرتي على إضافةِ كلمة.

نفد وَقُودِي، حتَّى آخرِهِ. أَطفأتُ المحرِّكَ، وَمَعْهُ انطفأتْ قُواي. فَتَّشتُ في معالمِ اللَّيل عن علامات بيتي وصدفة اهتديت. أحسستُ أنَّ حَيّي يتنكَرُ لي، وعمدا يضلِّلُني. يدع الغموض يلبسُ صورة البلاط الحجري، والنَّوافذ، ومحطة الحافلة اليومية التّي ترسلُ آلنَّاس إلى زقاقات المدينة. أَلِأنني أَصدقُ من هذه الحجارة التّافهة ووجوه النَّاسِ النّاشفة؟ لم أُطِل تلفُّتِي المتشكِّك. فأدرتُ المفتاحَ بالبابِ، وأَدرتُ قفايَ لِكلِّ شيءٍ، وللمرأة الّتي فتكتْ بِي بالذَّات. هويتُ فوق السّرير الذي لا يزال يعبق برائحة جسدِهِ وعطرِهِ. نضوتُ عنِّي ملابِسِي كيفما اتُّفِق وأَسلمتُ جسدي لِملاكِ النَّوم.

قبل استيقاظِ الفجر، بساعتين أو أقل، أفزعَ مَنامِي صوت خلتُهُ آتٍ من أدغال بعيدة.. احتدَّدت، حين صرختْ عيناي بالنُّور، واكتشفتُ أنَّ الصَّارخَ يخرجُ تلقائيًا؛ هاديء الأعصاب، من جزءٍ ما أسفل جسدي وبالتّحديد سرَّتِي. صرختْ عيناي ثانية بنور الدَّهشةِ، حين وقعتُ على مخلوق صغير؛ بحجم الإبهام تغوصُ قدمه داخل الحفرة السريّة، لا يظهر منه غير بطنه

الصّغيرة مربعة عارية. رأسه آلمدوّرة بحجم حبة زيتون، ليِّنة جدا تتحرك بكل اتّجاه، وهي تؤدّي حركات بهلوانية غريبة. حرك يديه حركات مدروسة ظهرت عصية على الفهم. أِشبه بقائد أوركسترا متمرس، شدّ عنقه أقصى اليمين وأقصى الخلف تصاحبُ تَطرُّفَها اللّاذع لأزمةِ المرأة الفاتكة. أَكُنتُ أَحْلُم؟ برغم مرور زمن طويل الأمد على تلك الحادثة لم أتحقق تماما من حدوثها. ردَّدَها المخلوق الصغير، باندماج كلي، استراحت بين مفاصل نبراتها رأسي الممزقة. تلاشى الصوت. بعده، تناهت إلى أذني خرفشة حذرة، أعلنت عن تسحَّبِ المخلوق الصّغير ثانية إلى سرّتِي بهدوء شديد.

تحسَّستُ الموضعَ الّذِي انبثق منه. وغمرني، دون سبب، حنان عجيب. مشيتُ إلى ملابِسِي المبعثرة أَلملمها من الزوايا المزدحمة برمل البحر، «لا بدّ دخل من النّافذة حين أشرعتها عصراً، وخرجتُ لنشر الغسيل»، همستُ بفرح. رتّبتُها فوق أعضائي المرتجفة داخل انفعالها.

بفنٍّ الرّابعة فجراً، لوّنتُ خطوطها السائبة، ومسَّدتُ عليها بباطن كفي لأُخفِي جَعْلَكَاتِها، ثمّ بعروق عنق ناتِئةٍ وقفتُ أتأمَّلُ السَّرير من بعيد. خِلتُ عنقي لا محالة ستفزُّ من مكانها وتسقِطُ رأسي إلى حيث لن أتعثَّرَ بها. هل حدثت هنا معجزة، أم أنها أصوات القلق هَذَتْ وحدها حتّى هذه الساعة؟

جرت الأمور بدقة متناهية. ولستُ أذكر من أين أتتني تلك

القدرة على التّماسك. حقاً، لا أذكر؛ لأنّ مَا حدث ليلة التجلّي تلك، سابقةٌ عصيّ تفسيرها. كنتُ يقظة تماما حين أعلنتُ المغامرة.

أشعلتُ محرِّكَ السيَّارةِ، وانطلقتُ إلى محمَّدِي الَّذِي، لا بدَّ، يغُطُّ في نوم عميق؛ بعد يوم عمل شاق. لن تغضبه المفاجأة، فقد ألحّ عليّ الأسبوع الأخير كثيراً لزيارته وتيَّست. قلتُ لهُ، ساخرةً: حين تنجحُ في رؤية شحمةِ أُذُنِكَ أخبرني، وفقط حينها سأجيء، وأضفت: شوف أنْتَ تَعرِفْ أنَّ الشّيطان أحيانا إبنُ حلال حين سيزقزق بيننا الحرام. ضحكَ بعصبيةٍ وهمسَ: يللا روحي، عنِّك ما جيتي.

وصلتُ الحيَّ الّذي يقطُنُهُ تَزُفُّنِي إليهِ الرّائحة آلّتي أبقيتُها في جواريرِ السَّرير. أوقفتُ السيّارة على أطراف عزقاتها، وخرجت جرياً فوق بطن الّليل؛ يدغدغني إحساس الإنتصار لِكبرياءِ المرأة الجميلة جداً. عند السلَّمةِ آلأخيرةِ تسمرتْ أقدامي الباردةِ، بَحلقتْ عيوني الفارغة بالأضواء الحمراء وبأغاني الدّيسكو الرَّخِيصةِ، الَّتِي يَتَوهَّجُ بها البيت الصَّغير. حجرةُ النّوم بالذّات الّتي تتذكر أجزائي وكلماتي. تضاربتْ دقّاتُ قلبي وخلعتْ حزام أمانها. تشاهقت أنفاسي، تصادمتْ بصعوبة، استجابت رؤوس أصابعي المرتجفة آرتجاف شرايين رأسي. أصبحت تغلي، ودمائي تشتعل وتمتلئُ دماً فاسداً، من رأسي حتّى أخمص قدمي.

قطعتُ مسافة الدّرجات المفتّتة؛ بأنفاس لاهثة. وكي أتحاشى خطأ تقنياً، يعكّر نزيف الضوء الحالم، رفرفتُ (ما أمكن) محيطةً بالظلّ الأحمر. حاذيتُ أضلافَ النّافذة الخشبية، وأصختُ السَّمعَ إلى حديثِ الفراشِ للنّور. حاولتُ أشتمّ رائحة الإحتراق بطريقة خاصّة، لقنني إياها في بداية تعارفنا، ضمن سلسلة ألعاب مسلية مارسناها معاً.

كان صوته مثل بحر قتل موْجَهُ وهجع، تتجاوب فيه آهات امرأة ليست أنا. علا بشدّة وانتفضَ بوحشية لبؤة جائعة. صمت ثمّ صهل. اتنفضَ وارتخى، ثمّ همس ما لم أسمعه تحت عجلات الدّم الأحمر. تشبَّثتُ بفتحةِ الضِّلفِ الضيّق، حين رشح صوته المتلاشي من جدران الغرفة المقشرة.. امرأة.. لذيذة.. جميلة.. جداً.

عرَّتْنِي الجملةُ من كامل ثيابي.. نحرتني.. وارتكبَ قلبي حوادث، عَرَضَهَا بنشاز غريب. تطايرتُ مُدَمَّرَةً.. رجل.. حذاء.. قمامة.. امرأة مغفلة جداً.. جدا. قفزتْ أضلافُ النَّافذةِ؛ مثلُ عَصَافيرَ مطاردَة. وكُنتُ إذّاك لا أزالُ أسبحُ في عرقي وشبقي.

الأبيض

بطرف عينها التي، قريبا، سيصيبها أكول، وبعيدا سيأكلها يراع الأرض الأخضر تُقَوِّسُ نظرات ناقمة إلى الهاتف الأسود، الرابض وديعاً؛ كقطة سيامية مهملاً ومنتظرا كالقطة ذاتها. لا يمل مثلها انتظار حركة خارجة عن العادة لتبدأ مواء لا ينقطع، حتّى تخلفها حركة أخرى تسلّيها أو تستثيرها. والحقيقة أنّه في الحالتين، مثلها، يحتاج من يشبع غريزته، وإلاّ ستسترسل قريحته لرنين مفتوح، كما تسترسل القطّة لنزوات موائها الحافل.

مرات فاجأها نداءه منكبّةً على وظائفها الجامعية، أو منهمكة بتجربة طارئة، ولم تُلقِ بالا إليه. ففي مختبرها الصغير تنصرف عن كلّ شيء، بما فيه الرنين والصفير؛ منقطعة لأشكال الحشرات المتضامنة، رعبا، ممّن وقعن تحت مجهر المباضع والسكاكين. تراقبها بتركيز شديد، وهي تحاول الإنفلات أول الأمر. ثم ترأف بها، وهي تهدأ وتسلّم لقدرها المحتوم.

ترفع رأسها، تحك طرف أنفها بسبابتها كأنما بعوضة حطّت

عليه وطارت، تَشْرُق بريقِهَا المتدافع بغزارة تحت لسانها. تحدّق طويلا بأناقة هاتفها الجميل، وهو يرتجف مع تواصل رنينه المتقطع. تبتسم بلا مبالاة حين تمرق في ذهنها سحابة، وتتذكر جمال ارتجاف جسدها تحت عربات قطاره السريع. تبتسم بسخرية، ثمّ تؤطر عينيها بعويناتها المذهبة وتعكف ثانية على المخلوقات الصغيرة، قوت مجهرها لذلك اليوم. تتركه يحاكي خشب الطاولة وصمت الغرفة الّذي لا يصطاد غير البعوض والذباب.

لكنّها، وهي تسرق نظرات ساهمة، إلى الهاتف، لا تملك غير الاعتراف بأنها مفتونة به. بشكله المستطيل، المنحرف عند آخره، هذا الانحراف الساحر، تفترض أنّ شكلَهُ يُلغي القواعد بفركة كعب. ينجز خطأ يشيع فوضى ماكرة، ويثير دوما قريحتها. اعتادت أن تضرم فيها جوعا لخربطة الوجود حتى يعاد بناؤه على غير شاكلته.

حين تفوح ملابسها برائحة الضلوع في الذنب، تفهم أنّها في الطريق لإنجاز خطأ فادح، فتفرح، وفرحها كان يحزنه. لم تكن تروقه مواسمها التي تفوقُ مواسم السنة؛ عدداً وتجدداً. وحين يلاحظ ضحكتها تسلّم على أذنيها، يفكر بداهية مُحكمة أنجزتها، على حد تعبيره. يغلي دمه، يعاينها بصمت وعن كثب. يجرب نباهته في اكتشاف الموضع الضالع، بتهيئة ظروفها، وهو يدخن بشراهة. بعد هزات متأنية من رأسه، يصدر موجز توقعاته الفلكية بشأن دواهيها.

بارد الأعصاب، حيادي، تحتقن شرايين رقبته بالحقد الأزرق. «وحده فيوزاتها ضاربة، ولاشي راح يفيد معها»، ينطقها لا مبالية وجارحة من خلل شفاه يابسة كالحطب. يتجعد مزاجها قليلا وينكمش، لكن عينيها، خلسة، تشاغبان عفاريت قلبه. رغما عنها تزغللان وترقصان، وترقصانه معها.

تنسى الإساءة، وينسى حقده الأبيض على دواهيها الصفراء.. دواهيها الصفراء-العفراء، وتبيَضُّ شرايين رقبته. لطفولة عينيها وشقاوتهما حكاية تشبه الشاطر حسن، وحكاية بياض الثلج، والأقزام السبعة، ومهما يقسو لا يملك غير الغفران لنداوة ضيائهما.

تذكر، أجل جيدا السابع من يناير، يوم صدامها الكلامي مع صديقتها لميا. لم تكن تحبذ أن تؤرخ قطيعتها لصديقة أحبتها لقائها برجل، مهما تكن مؤهلاته. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، حين انتفض الهاتف، وتنبَّه رقاص الساعة وتململت. بتلقائية، تشعل أناقتها النار تحت الثياب، حررت هاتفها الأسود من قاعدته؛ لتُخرسَهُ. تأخر الصوت لثوانٍ، أعقبها ارتخاء صوتها المخملي في نسيج الهاتف. كان كلام الرجل المتفرّق ذعرا ودهشة، كما يبدو، غير قادر على الإنضباط. لقد أربكه الصوت.

بدأ حوارهما حديثا، عشوائيا، لامرأة تريد أن تقتل الوقت، ورجل يخلبه ألق الصوت فاستهلكها وأتعبها. وحين

استأذنته احتج. ضحكت من سجائره العصبية، اعتذرت وذهبت تنام. لكن بعد ذلك أخذ الوقت يقتلها، والصوت يبرمج اغتياله.

ظلت أنامل تجاربها، بالذات، تصافح الساعات الأولى من الفجر برفقة صوته المعبأ بالقهوة والسجائر. أحبت القهوة، لدرجة أنّها سمعت تكسير حبّها في مطحنة سالم القهوجي. وسرقت وصفة خلطها من أوتار صوته المتعب. طبختها في غلاية صغيرة على نار مرتعشة؛ كما أوحى لها جيتارَهُ. موسيقي موهوب، يمرر اللحن بين أصابعه، كما تمرر غازلة المكوك الخيط في الأبرة؛ نقياً حاداً وحالماً. عدّت بيوت يافا، ومشت في شوارعها قبل أن تراها. رتبت لزهر بيوتها دفيئة على شكل قلعة كبيرة، «لا يليق بمدينة عشقها سوى جغرافية المجد وتضاريس العظمة»، همست لنفسها. وأثثتها، برغوة البحر الهارب من نزيف الشمس وقت الغروب، وأصوات البواخر الراسية أو المسافرة، معتمدة على خارطة كلامه، التي لفلفها ودزها للأسلاك، وبينما كانت تؤثث البيت الّذي سيسكنها في مخيّلتها الرّحبة، رأت نفسها تطل من نافذة القلعة الجميلة التي يحتضن خاصرتها الشاطئ.

تترك مختبرها الصغير، لساعات، وتبحث في الكتب عن أسماء مدهشة للصوت. تنتقي أشد أصوات البواخر عمقاً وحزناً؛ لتجلل بالهيبة عراقة تاريخها الذاهب. ثمّ تلملم، بين كفيها، ما يتساقط من أحلام النوارس؛ لتغزل منه قبّعة لسمك القرش.

وحدها الرغوة ظلت تكلِّلُ خاصرة القلعة بالأبيض الذي تغار من وهجه.

ليلة كاملة حدّثها عن الأبيض الذي ازدانت به عروس جلال؛ صديقَهُ الحميم. انفعلت نبرات صوته حتى اختنقت. بدا مهووسا بالأبيض، حالما، ربما بالبقعة الزرقاء أو الحمراء، التي ستفسد فتنته بعد أن ينصرف المدعوون ويبقى جلال والأبيض وحدهما. لقد نزفت ماجدة وخربطت الدنيا. خاف جلال وبكى؛ كأنه لم يكن مسؤولاً عن إعدام أناقته». قالت له، حين أصرّ على الإنبهار بالأبيض: بعض الرجال بلا ذوق في الليلة الأولى، يوجعون ويبكون. أطلق ضحكة، مبتورة عن آخرها، لم تنج من شذرات خجل «أحبُّ أن أكون بلا ذوقٍ وأنا معكِ بالأبيض.

«هل تفهمينَ لغته التي تفيض طوفان حرائق من الحنجرة، حتى أطراف الخاصرة؟ هل تفهمين؟»، علّقَ بهياج، وبلل شفتيه بلعاب شوقه. «وأنتِ بالأبيض..» حتى أقسمت أن يحاكيه أول مرة سيلتقيان عنها فستان أبيض كرغوة البحر التي يحب. «خاف جلال حين رفعه الشباب فوق أكتافهم أن ينطح السقف رأسه»، سخرت منهُ.. «أهو ثور؟» لم يعلّق، تابع محموما. ظل يثني جسده، والأصدقاء يدورون به القاعة. فسّر كأنّ جلال فوّضَهُ، «تعرفين كانَ سَقفُهَا يُشبِهُ القبَّة، وكان معرّضا في كل لحظة للطشة حيط». «وقفتُ بعيدا أراقبُهُ وأضحك»، قاطَعَتْه: طبعا تخيلتَ نفسَك ببدلته السوداء فوق

أكف الأصدقاء، تلاطشك الجدران الغاصّة، تستنجد ولا تجد مناصا يخرجك من هذه الورطة».

رفضت ماجدة أن يرفعوها لجانبِهِ، ظلَّت تراقبه من الكوشة. ومرة تزم شفتيها؛ على شكل فم سمكة، ومرة تقطّب ما بين حاجبيها، وتتمتم كلاما لا نفهمه بين ثنايا فستانها الأبيض»، التصق ثانية بسقف الأبيض. قاطعته فجأة: دبّغ الروج الأحمر مؤخرة فستانها، وأطفأ بعض ألقه. فخجلت ماجدة من نظرات جلال الفاضحة»، كانت تفسر هروبه من آخر الحكاية. تجاهل كلامها وتابع التحليق بنظرات حالمة فوق السحابة اليضاء التي تلاحقها من مكانها على الأريكة. لكن الروج لم يسعف ذكاء تلك المرأة، انتظرت ساعات طويلة حتى أفصحت عنه، لقد تغابت»، همس مقطّب الجبين حالما لا يزال. «قالت انها تكره الليلة الأولى وأدلة الشرف الكاذب»، همس باتّهام.

لم تفهم، كنتُ أنتظر اللحظة التي سينطفئ فيها الأبيض وتتسع مساحات الروج الأحمر حتى آخر السماء». «ألهذه الدرجة أنت مصاب بالذكورة؟»، احتجّت. «ولهذه الدرجة لم تفهم عفاف الأنوثة!»، تطيّرتْ غضباً، «صائب سليم من تكون هذه المرأة؟ أفصح. يزداد حلما وتزداد شكوكها. يهرب إلى ماجدة وصراخها، حين قرصها جلال في فخذها، «أتصرخ من فخذها؟»، تغابت.»أقول، حين قرص فخذها». وأردف، «هكذا هنّ النساء، وتلك المرأة حين قرصتها من فخذها

ضحكت، ومن عنقها قرصة موجعة ضحكت أيضاً، وقرصة أخرى في قلبها، ثمّ لم تضحك أبدا».

إليه، باتهام «اذن كانت زوجتك الميتة، أماتت مقتولة من قسوة القرصة!»، تفحّم وجهها. «ليس تماما، ثلاث قرصات لا تقتل»، تجَعْلَكَ كلامهُ في ثنايا حلم مُرٍّ؛ مرارة القهوة التي أصرّت أن يشربها من يديها يوم التقيا. ثمّ كأنّه تذكر أمراً غائباً استدرك: هي من قرصت نفسها، وتململَ. وتحدِّثُني عن الأبيض؟ هجمت على صوته، توسّل إليها، «لأنه بك يتدفأ اسرارا حارّة». سخرت، «كي تأتي طبعا وتقطف أعناقها». «إنّي في شوق لأبيضك»،قال. «لقد استدرجتني، إذن، لتقرصني قرصتها المدوّية»، اتّهمت. «بل لأغسل ماضيّ عند أقدامك، يا امرأة غدي الحالم، إنّي أعبد الأبيض وأنت فيه»، احتالَ. سخرت منه، بصوت عال هذه المرّة: إذهب يا سيّدي، واحلم مع غدك، أنا امرأة لا تصلح للأحلام.

المرات التي ذهبت لن تعود لاغوائها بالرد ثانية. تتأمل رنينه المجمور، وتدير له قفاها؛ فلا يعنيها، كثيراً، أن تتلقف صوتاً بعد الآن يحترف العبث وتفتيت الأعصاب. كانت هواية.. هواية رجل مختل الروح ومعتل الذاكرة، مفتت القرار وقلبه مغارة مسكونة بالعناكب. لقد تضامنت، مراراً، مع هذه المخلوقات المهدّدة، وأشفقت على بيوتها الواهية، وهي تتفهم أيضا حاجتها لمن يحميها. شيء واحد لن تتفهمه، أن يسكن انغلاقها قلب من تعايش؟

ينزل المساء على زجاجاتها المعقّمة. مع انتشاره المتشكك تتقطّع أوصال الغيم. أسود مثل قلبها المطبق على خيانةِ نبضِه. بيضاء تتجلّى أمام الإعتراف، ثمّ تتعكّر. سجّلت على هامش بطاقة التوثيق المحايدة، وخلف جبينها، ربّما، من بعيد حيث يوشوش مريولها الأبيض مسطرة الموزاييك تمتحن الحشرات الشفافة.

تتساءل، بذعر، إذا كانت مخلوقاتها ستواصل العيش بدون حركات ظلّها الجلدي. هذه الأكف الجلدية لا يمكنها بدونها، فهل يمكن للمخلوقات بدون وجه كفّيها المكمم؟ بدونها ستشعر أنّها كالزواحف الرخوة داخل الماء، وقد تتشبّه أصبعها بأبي بريص مثلا فتُجَنْ. حين خضّ هذا الخاطر رأسها انتفضت، هو بالذات يستطيع أن يعلّق روحها بقدمها، بمجرد أن تلمحه لمحاً. فهل ستشعر داخل مائها مثلها بالغثيان؟ «يوجد أبيض مقزز»، تمتمت، واسترجعت بامتعاض ذكرياتها مع أبيضه، رجل الجيتارة. كانت ستفلج لو عرفت أنّ مخلوقاتها تلك لن تنتحر هماً وكمداً إذ ما افتقدت وجه كفيها المكمم.

تلفتت حولها بذعر، فجأة باردة، كأنّ أحدا غيرها يسمع ما تهمسه لمريولها. ضمّت أطرافه، بحرص، وقوسّت نظرات ناقمة لأناقة الهاتف الأسود. كان يفتح ثقباً ساكتاً على فالساته السعيدة حينذاك. إنّها تعشقه.. أجل، ولا تنكر افتتانها المتجدد به، «لكن العمى، هل تعشق آلة معدنية؟»

تساءلت. وأجابت بسرعة التساؤل: «تعشق دينَهُ أيضا»، لقد جلبته من رودوس قبل أربع سنوات على أقل تقدير، وكان الذي يراها تتنقل بين المحطات الكثيرة محتضنة علبته الخشبية، يجزم بحقيقة جنونها. أليس في رودوس كلها غير هاتف صدئٍ كهذا؟ غيرتهم الشديدة من قراراتها الغريبة دفعت صديقاتها فيما بعد لاتهامها بالحمق والرعونة.

في الواقع، كانت مستعدة للتخلي حتى عن حقيبة ملابسها الفاخرة لقاء احتفاظها بالهاتف. لقد قرأت في ظلها المتماوج داخل لمعانه دعوة غريبة لاقتنائه، ربما لتسمع فيما بعد كل الأصوات التي لم تحلم أن تغافلها يوما. في بيت ملفوح الهواجس، كَبيتِهَا، وفي أقصى مدينة، كمدينتها، تحتاج هاتفا مثله يجهّزُ الليل بالحكايا.

«أرق الأبيض لعنة»، همست لنفسها؛ كي تبرر انشغالها غير المبرر به. بعد مكالمة واحدة أصبح هاجس الساعات الآتية. أرقام النهار، وقسط أوسع من أعداد الليل، فقرّرت وقبل أن تتعلم الحقد على رنين الهاتف. دعته لفنجان قهوة يركّبُها، هو، على نار هادئة، وأكّدت «ستراني داخل الأبيض». أرادت أن ترشق العتمة بالماء، وتكتسح عرش الوجود كما فعلت ماجدة ليلة دخلتها. حين رآها اشتعل بالسجائر. كان انفعاله يأكل أفكاره وكلامه. ركّب القهوة، وجلس قريبا جداً من مخمل صوتها. ينطفئ، كلما تألّق في حناء يديه وعواصف ريقه الأبيض.

لكنه، حين لامسها استاء وحين عراها اكتأب. لقد خدعه الأبيض هذه المرة أيضا، وكما في المرة السابقة؛ لم تكن امرأة بجسد مضيء الأطراف، جميل كما تخيله، بساقين بيضاوين وفخذين معروقين وصدر ينوّر رمانا عجرا أخضر، بل أنثى بأعضاء محروقة؛ حمراء قانية بلون الشقيق. وهو منذ كان طفلا يرافق أمه للموقدة، يخاف العجين حين تلسعه الجمار المتوهجة، ولا يذكر أنه أحب ألوانها الفاقعة. يظل يبكي حتى تعدّ له أقراصا صفراء بلا لون. فكيف يمكن له إذن التصالح، في سن كهذه، مع الألوان المورّدة؟ سيستاء ويكتئب في هذه اللحظة المؤلمة ثم سينسى. بعد أيام ستقطّع وحدته شهقات امرأة جميلة بعباءة أخرى بيضاء.

كان صفير الهاتف يتحرش بأشياء المكان لاهث النفس. يطرق بإلحاح صفائح العلب والزجاج المقفلة على مخلوقات صغيرة تتهيأ للموت. وكانت تعرف أنّها هستيريته المفتوحة تعلن عصيانا على القطيعة. صفعها حين تذكرت ماضيها البعيد معه، «من يحتاج أصلا إليكِ، أكون ممحونا لصوتك وحين أطلبك يجيبني الفاكس أو الخطوط التي علقتها في الهواء حتّى أشعار آخر وذهبت تلهين». «وحده الفراش يلهو بعد منتصف الليل»، تجيبه معترضة. يتابع، «من أنت حتى ترشين لهفتي بكبريائك المريض؟». يعضُّ فزعها الألم، وتقرر أن تؤلمه «تماما كما رششتَ بمنيكَ جسد تلك المرأة الميتة، وخنقتَ وجودها»، صرختْ في أعماقهِ زوبعة.

صار يحقد على الأيام الّتي توسل فيها إلى اللّيل أن يوقظ همسها. لكنه لن يحتمل أن تبصق في صحن الأيام التي اخضرّت بينهما. في عروق أصابعهما انقبضت زنازين محكمة على القبلات. «أهلكته زلّة لسان». قال، وهو يحاول الدفاع عن موقفه: «لم أتوقع أحكامكِ سامّة لهذا الحد، أنّ أعرافك جائرة هكذا»، بهذه الكلمات المهذّبة وصف المعاول التي حرثت أنوثتها.

صَفْقُ الهاتف للجدار يلاعب ناموسية السرير البيضاء. فضول هواجسه يلتصق بسقف القبة والجدران البيض، ويكبر كلما قوبل عذابه باللامبالاة. لن تحتاج رجلا تنتهي ذكورته عند أطراف فستانها.

أحبّته؟ هذه حقيقة، لكن حين سيحتاج الحبّ رصاصة في الذاكرة؛ كي يهدأ ستوزّمه رصاصاً. «يجب ألا تختار ذرائع لفشلها ولكن ضروري أن تجد وسيلة تنيمه كي يستفيق حيث يجب، كي ينبّه وحسب»، زمّت شفتيها الصغيرتين؛ كأنّما تقنع امرأة عنيدة لا تسمعها.

أيّام، بعدها أيّام، تأتي سريعة الوقع، حافلة بالفرائس. وهي سعيدة، تماما، ربما لم يخالجها هذا الشعور من قبل. تُجرِي تجاربها؛ كأنّها تنفّذُ قَصَّة لثوب زفاف وليس بحثا شائكا متداخلا بين المادّة والعناصر. الكلوروفيل أصبح مادة للتسلية والإنزيمات، ربّما، تجنّد مزاياها في تصفية الأجناس المتفوقة. هتلر ليس أشدّ ذكاء منها ورأسه لم تكن أكبر من رأسها، بل بحجم بنّورة.

مركّب لم تُحلّل، عبر قراءاتها المتوترة لتاريخه وعناصره إذما كان لرأسه رؤوسا باطنيّة. «والغريب أنّ قسوته كانت تذوب تحت أقدام إيفا براون»، همست بانفعال.

يعجبها سفاحو التاريخ، أمن الممكن أن تستحيل مداعباتها المؤذية للزواحف، للسلمندرة الصفراء، خصوصاً، ضربا من التسفيح؟ خرقا لحقوق الكائنات الخرساء؟ إذا؛ عليهم أن يعيدوا أولا حقوق جيران جدّتها المنعوفين كحبّ العدس في بلاد الشتات. سحبت نفسا عميقا ولخّصت: بعد ذلك يمكنهم مساءلة جرائمها. همهمت، بضيق: «هل السلمندرة أهم من أبو صالح؛ صانع السمنة المعسّلة؟» قطعا، لا، فكل البرمائيات البشرية في كفّة وسمنة أبو صالح في كفّة.

لو سمع هتلر بمأساة أبو صالح لترك كارونه البارد وأوفد كتيبة كاملة لتعيد بيوته ومزارعه. لكن لهتلر مشاكله الشخصية؛ الّتي ستمنعه ربما من هذه السابقة. دون شك سيتهم بالتحيز، ابتسمت للفكرة.

سريعا، تخلّصت من مونولوجها الساخن، وعلّقت بصرها بالسرطان البحري. برمائي خطير جدا مشيته الزكزاكية على الشاطىء تمنح إحساسا بالدناءة. وخارطة نجمه، لئيمة المزاج، ولا تستقر على حال؛ دائمة التزحلق. أجل هذه أفضل عبارة، دائمة «التزحلق». ثم بحدّة، حارّون جدا كالصيف وخانقون كالقبر، ربّما لذلك لا تطيقهم، أكان رجل الجيتارة سرطاني

المنشأ؟ كركرت بضحكة طويلة، لم تسأله، ولم تتخلص أياما طويلة من أحجية نجمه، لكنّها ستعترف. ضاقت ذرعا بسخونة أصابعه. تفضّل أصابع الرجل باردة لتسخّنها بلطف ورغبة.

ألن يملّ من التذكير؟ تفتلُ حوله، وتدير له مريولها كأنه يزعج كائنات تعيش في غابة خارج نفوذها. وحين تحفل بإلحاحه، تندفع باتجاه معادٍ للفضول. هي تعرف هستيريته جيدا، وقفاها، الآن، وحدهُ، يملك الإجابة. يقاوم دفء اللهاث ببرود خشن. تتسلح بالحقد واللامبالاة. لقد رأى عبر الأسلاك كل شيء، حتى مختبرها الصغير فكيف لم يلاحظ أن جسدها ليس إلاّ مجموعة من قطع مضاءة، حتى حاجبيها وطحالب عينيها القريبة من وثبات السماء، والزغب الأشقر المنتشر كداء جدري أعلى عنقها ويديها، وهو منذ طفولته لا يحب الألوان الموردة.

حين خرجت الى الدنيا، المتثائبة بالبشر، لم يبق شيء يستنجد به الرنين الأبحّ غير مريول أبيض ملقى باهمال الى طاولة التجارب العريضة؛ وقد خضّبه أحد الدوارق بسائله الأزرق، حين اندلق محلوله بفعل عاصفة الرنين. وتساقطت معها سائر الدَّوارق النحيلة، فملأت أكتاف المريول بُقع روج طارت تحت نظرها بعوضا أحمر.

حُلُمٌ وامرأة

من نوافذ بحر يطلُّ على الفوضى يَطلعُ الموج، يلمّع كوعي برغوه ويهرب. وأبقى بعده بضع ساعات؛ منكبةً على رقعةِ البحر الّتي خيّطت كوعيَ المتَّسِخ ، كوعي الّذي لـم أفكر أنّ رقعَتَه ستصير يوما عجينة دبقة تجمّع أوراق الغرباء .

ذات يوم عادت إليّ تحمل وريقة محززة ببنسات زرقاء، مغزولة برسالة قصيرة تقول: أعتذر عن لقاء اليوم؛ لأنّ طارئا طرأ وشغلني. لنا لقاء في العطلة إن شاء الله. أكتبي إليّ رقمك لِننسّق! ونسي أن يوقِّع حرفه.

طويتُ الرسالة في عبِّ الغرفة، وأمّنتُ عليها امرأة صغيرة، حاولتْ طوال أسبوع كامل أن تفكّ بنسات الرسالة ففشلت. يبدو، داورها السرّ، ودون أن تدري تَركَها وذهب.

المرأة الصغيرة طوال الأسبوع الفائت لم تفارق عبّ الغرفة-غرفتها، ولم تكفّ عن صداقة الأحلام وامتطاء صهوات الجياد. خُيِّل إليها أنها رأت صاحب الرِّسالة يمشي على أطراف العتمة، ويمد لها إصبعا من مرجان، اللّيلة قبل

الماضية. وهي، لارتباكها، وضعفِ بديهتها، تركت إصبعه المرجان معلقاً في سماء الغرفة وطافت حول العتمة. حين استدركت، كانت إصبعه قد ارتطمت بالبلاط وانقلبت إلى قطع معدن من فئة العشرة أغورة.

برموش عينيها لمّت قطع المعدن، ودفعتها إلى عبّ الغرفة، حيث البنسات آلزّرقاء، وعادت تحلم. فاوضت الغيب بعودةٍ مرتقبة لصاحب العتمة وأصبعِهِ المرجان. وظلّت تنتظر، يوما، يومان، ثلاثة... عشرة.

آخر الأيام العشرة قفز، أوّل اللّيل، الرَّجل من عبِّ الغرفة. أَفلتتْ ورقة التّوتِ من عانتِه، ووقف يجوحُ. حينَ رأتْهُ المرأةُ هذه المرّة فَزِعتْ وَهَرعت إلى عبِّ غرفتِها. أرسلت يدا مرتجفة وفتّشت، فتعثّرت يدها ببنسة زرقاء واحدة. على غير انتظارٍ، تمزّقت وسقطت نُتَفاً فوق الورقة. ابتسمت بمكر، أكثر من أيِّ مرّة سابقة، وَتساءلا حاجبيها المقوّسان على شكل ثمانية: تُرى، لماذا يبكي الرِّجال حين تفلتُ الخطيئة من بنساتهم الرَّخوة؟

التُيُولِيبْ

لبسَكِ بدني، واختفيتُ في خشب السرير. خفتُ أن يشي بكَ طن ملأ المكان خطواً تحتا عنكِ! لو حكى الخشبُ آنذاك لأعلن أن بدني ملأكِ تحت جلده، وأسكت دبكَ الأحذية المتسارعة حول الموقع الفارغ، حيث وقف قطر صوتك ينتظر رجوعك. ذبابة زرقاء بطائرين برّاقين تلتصق بالكتف للمحة، تلبسه وتغادر، تَنَادى الحضور، هل رأيتموها؟

خفتُ على كتفي، حين لاحظت الرجال يهرولون مذهولين إلى أكتاف تعلّقت في الهواء وتخلت عنهم إلى الأبد ربما، همستُ، وانكَمَشتُ في أخاديدِ نفسي. ليستْ واضحةٌ تمامًا لُعبةُ الأسيادِ والخدم في هذه الأمسيةِ الحافلة، همستُ بانزعاج لسيجاري، ثمَّ علقَت احتجاجي بفروة الكبوت الناعمة. لا أقبل سواكَ سيدا لها، قلت؛ وأنا التقط قفزاتك السريعة بين الكؤوس والشوارب.

كان مساء لجسدك أنت، عرس للوكية حضورك. فوحُهُ عشق يصيب من يقترب منك بالهذيان، وربّما لأجل

ذلك اختطفتِهم بضربة حظ واحدة، وصرتِ ملكة لرجال، هيئاتهم ظلال تتعلق بأسقف الباحات الواسعة.

تبتسمين بمكر شفاف وأنت تمرّين بجيوب عيونهم الممزوعة من شدة البحلقة، أو الإنتشاء. تماما، كما تفعل ذبابة زرقاء بعد أن تلسع أعداءها، تلبد في زاوية بلون جناحيها، وتطلق أغنيات مزعجة. أما أنت، فتختفين لتتأكدي من افتقادهم لك، وحين تظهرين ثانية تتحصنين بالهواء، كما تفعل أجزاءهم المفقودة، ثم تطلقين صمتا يقلقُ حتّى الذّبابة الّتي تمسرحين دورها. كنتِ جميلة وفاتنة، لا تقاوَمين بسهولة. لا بل لا يعرف الرجال كيف يقاومونك، وكيف يدفعون ضوعكِ عن تفاح أعناقهم. ألغامُ العشق التي وزَّعتِها على مخابىء العتمة وتفجّرت خلفك كانت بارقة الجنون الأولى، التمعت على ذهب أزرارهم؛ صارخة، وتلفعت بِطانة القمصان. كانت صورتك داخل النبيذ الخمري سر رجالَ نفضت زوجاتهم حروف العشق سريعا عن ستائر خزائنهم ومن مكتّات سجائرهم. دبّق هذه الليلة على الملابس. انتشر بعد أوّل رشفة مع القهوة على طرف اللسان.

لم أجرّب مقاومة مكر شفّاف لذلك الحد. بل خفت أن أفعل. وقفت بعيداً، أراقب كيف تصرعين رجالاً أحاطوني قبلك بالسؤالات ويحيطونك من بعدي بالسخافات. ليس تماما، إطراء امرأة سخافة، لكنه حين يصبح حكاية الساعة يُبتذل ويلغي أبعاد الرائحة، ورائحتك كانت سيدةً حول الموائد وبِدَل الرجال.

كسّرَتِ الموائد، بعفويةٍ وصمت. كانت كلّك. حقا، لم أعترف لك قبل الآن أن ما يأخذني إلى امرأة جميلة رائحة صمتها. لا يستميلني جمال ثرثار. والصمت حين يفوح من تسريحة امرأة يرسل وميض قوّة. أحب المرأة القوية، ليس تماما، امرأة قوتها خلف رائحتها.

فكرتُ بكِ كأُنثى، لا يُمكِنُ أن أكذبْ. ليس فقط، لبِسَكِ من بعيد بدني. لا يحدث أن تلبس أبدان الرجال نساء لم يتبادلوا معهنَّ أشواقا. أما أنا ففعلت، بعد أن أحدثتُ غيوما لسماء تسريحتك وتخللتُها، وجلبتُ لك شتاء تلقائيا أدهشك. لم تتنبهي إليه قبل أن يغلقَ الرِّجال جَرّارات غزلهم على ردودك المختصرة ويحلّقون فوق رأسك. ارتعبتِ قليلا، أعرف. لم يلاحظ غيري رعشة فكك الأسفل. كنتِ تستعيدينهم لأقل من خمس ثوان، ثمّ يصعدون إلى فوق حيث الغيوم الملونة تدوّخ المطر المُعوِل حولك.

لبِسْتُ الشِّتاءَ معكِ ولففتُ نصفَ دائرةٍ باتجاهكِ. اصطدمتُ بنصفِ ارتباكِكِ الجميل. أبصرتِني للمرَّةِ الأولى إذّاك مع الشتاء الذي ألقيتُه عليكِ. لم تكوني في تلك اللحظة لغيري. كنا تحت الغيم الذي تسلّقوه أنا وأنتِ فقط. لا... أنتِ وأنا فقط ، هل سيهمُّ رائحةَ عينيكِ من يسبقُ الآخرَ ونَحنُ رأسانِ لجسد! آسف هذا كل ما أفهمه من أدوات التدلّه باحتواء امرأة.

ظل السيجار ممسكا بفمي يحتجز التفاحة التي بدأت تلعب في حلقي وتخنقني. فهمتُ من زهر القندول، الذي تهلّل في وجنتيك، أنّك مجنونة بالشتاء فازددتُ له استمطاراً ولكِ احتلالا. حَبُّ الكرز فزّ أخضرا من أرنبة أنفك المدورة، مخالفا عدّ فصول السنة. عجراً أفاق كرائحتك، فحين تغيظ الردهات، تصبح ذكية وساحقة.

لا أعرف كيف تخربط امرأة عدّ الفصول، هكذا، دون أن تقاضيها قوانين الطبيعة، أم أنّك من صنعها؟ تخيلتك دائما عجرة؛ كثمر الشتاء دون سبب. اختنقتُ بكِ، كنت الوحيد الذي يسمعك. فوحُك هذه المرة كان دربكة عنيفة، كلّما سمعها رجل صار عشرة رجال، وتمنّى أن يلبسك في النصف الأعلى من جسده، مثل ساعته أو ربطة عنقه.

قد تخنقه، لا بأس ما دامت تبقي مسافة أطول للعناق بينهما. هل فهمت أنني أتيتُكِ بشتاء عاصف لأعانقك كل المسافة التي تفصلني عنك؟ لا يحترق الرجال كثيرا بسيجار مزخرف كالّذي اخترتُهُ للمناسبة، لكنّهم يحترقون من هول المفارقة التي يتسبب بها جسم أصم يأتي كي يحرقَ فيحترقَ في فم حامِلِه. أردتُ أن أتخلَّصَ من حرارتِهِ المتزايدة في فمي، فأنساني الشتاء الّذي دفعني نحوكِ أنّ أسناني تسخنُ أيضا، وأنّنا؛ أنا والشتاءُ، نعصف من مسافة الخطوات القليلة مثل زوبعة بخلق المكان.

تقدمتُ خطوتين فقط. ارتسمَ وجهي في عُيونِ الحضور، مثل مسبة أو إهانة، أو يجوز خيانة. حارقاً مثل شعطة قبلة يخطفها غريبان في قاطرة، وتنابتُّ فيها بسرعة القبلة تلك، قرونَ فلفل أحمر. سقطتْ تلك الآلة بين الأقدام. صوت ارتطامها العالي بالبلاط أفهمهم أنها مصدر غيمهم. بهذه الحيلة السريعة استنزَلْتُهُم من الغيم إلي. نظرتُ إليك بدونها، فخُيِّلَ إليَّ أنّ ملابسي سقطت معها، وأنّك تحدِّدين دون جهد المواضع التي تمنّتك.

أردت اجتياز الأشبار القليلة الباقية، لأقول لك أنني هو عاصف إقبال، الذي لا بدَّ أسمعك زوارك قصته معك. مقاول العواصف التي تأتي من الغيم. غيم ملون يستخرجه بتلقائية فاتنة من خشبة صغيرة متعرجة. لا يحتاج احتياطي رجال البترول المُصنَّع الّذين يطوّفون حولك، كي يعصف مواسم بجسد امرأة كلّه مواسم. هذه حقيقة! التملق في وطن يشبَع من طول السواعد، ويموت جوعا من فقدها يصبح بترول الرجال المصنّعين، دون حاجة لتدقيقات طويلة، وربّما لذلك ليس غريبا في زمن الجوع هذا أن تتعثَّرَ الأقدام بالجواسيس والقردة.

أردتُ أن أؤطرك مثل توبج توليبة، لتظلي هناك معتقلة. بغيمي الساحر وحده، وألفّ بك.. ألفّ بك؛ كما ترقص جنيات الأساطير مع عشاقهن، لفّة بعيدة ساحقة مثلهن. ألفّ محتقنا

برائحة عينيك وبوسة الخال التي تَفرِقُ جبينك، كهنود المهاتما.

كل شيء فيك، يا سيدتي، لغة لرائحة. تمنّيتُ عناقك، لا شيء آخر، وقبلة مستعجلة تدوّخ تسريحتك، تفكّكها هكذا كالرغبة من المشابك. وبدل أن أصل حيث أنت اندفعت إلى مدخل جانبي، قادني إلى غرفة أنيقة واسعة، وسطها سرير من الخشب. ميزت في إنتاجه خشب الآلة الصغيرة التي تصنع في فمي العجب.

السرير بلا مفارش، وبلا وسائد. خشبة سميكة مالسة، تعرف كيف تخبىء الأبدان فقط. بعد تردد وافقت أن تبتلعني بك، حتى تعود إليّ آلتي الخشبية، ومعها ترتديني ملابسي. كان يجب أن أُفهمك عن تَمردي المفاجىء، على شتاء صنعتُهُ خصيصا لكِ أنني غير الرجال، ولو بابتلاعي الوهمي لك.

عاصف إقبال؛ مقاول شاعر سمع عنك، سنوات طويلة، خلف البحار من رجال أتوه لإبرام عقود وصفقات رابحة. من خارج وطن طرده، بعد أن بصق على فقره. رجل لا تعرفينه، يحفرك لعواصم مضاءة في إسمنت جدرانها الجاهزة. مقاول عقارات، كتبَ على جميعها خواطر غير مرتبة لصورة وصلت ببريده المستعجل. قاهرة الرجال، قيل، فقهرتُ بك كل الزبائن. خدعتهم بعقارات مستعملة تعزل قلوبهم؛ شأن

جدرانهم عن الصوت وتقرّبهم من الموت. تعزلهم فيكِ. مملكةً صرت، قوتا للصمت.

لم أفهم، حتّى الساعة، لماذا يكتئب الرجال حين ينفردون بك، ويغادرون سريعا إلى بيوت أبدية. هل كان كلامي المدسوس في عازل الجدران الجبصية عازلا أيضا لأنفاس الحياة؟ قولي، هل كانت رائحتك تخنقهم أثناء النوم، أم أنها مشابك تسريحتك المبعثرة؟ كلهم حالات اختناق ليلية. إحكِ لي كيف حدث أن أفقرتهم واغتنيت بكبرياء لا تشبعه العبادة؟ وأخذت كل ما لهم وأرسلتهم بملفات أسرّتهم إلى جحور الفئران ومواكر الأرانب. لا أذكر أنّ كبرياء امرأة قهرني، لكنَّك فعلتِ قبل أن أراك.

هناك، في عواصم مضاءة بشهرة النجوم، بدأتُ أخربشَكِ غصنَ لوز خجل الإزهار يستحي من لحظة بلوغه. وكنتُ هيأتُ لمشاريع عزوبيتي الطويلة هواية لأجلك، تجفيف ورق الشجر. لم يكن لمدن هجمت عليها صناعةُ الكبرياء أن تتقن صناعة الورق.

يمكنني أن أعترف لك أنني كنت أمهر مجفف لشجر المدن المهملة، هكذا سماني رجال الصناعات الكبرى واندهشوا. عليها خربشتُ لوزك. ألذلك سمّوك نوّار! ألنفس السبب رفضتُ أن أسوّق خبرتي الجديدة، أخوفا من الابتذال؟ أَعليكِ أم على مواسم اللوز؟ تهامسوا بك وأضافوا، «نوار معلم مديرة شركة رائدة في صناعة البورسلين، كل ما يعرفه الوطن

عن إزهار الأيام». أخرستهم بأدب من فم السيجار، «وكل ما ستعرفونه عن إزهار اللوز»، قلتُ، وآنغمرت بتصميماتك آلمدهشة. لستُ متأكدا من علاقتك باللوز. لكنني أتذكر، جيداً، أننا أسمينا زهره صغاراً نوّار. كان ينتشر يومها في الحواكير المهملة وليس على نهود النساء، لاحقناه خارج حدود المدن؛ لئلا تقبض علينا عصيّ مخضِّري الأراضي. لغاية واحدة فتشنا عنه، كي يعترف لنا بمستقبل عشيقات المدرسة. ننتِّفُه ورقة ورقة «بتحبني، بتحبنيش»، وغالبا كان النوار ينتهي بنا إلى اعترافات مظلمة عن العشيقة. هل تكونين واحدة ممن أغفلتْ شفاهُ الصبيّ الَّذِي كُنتُهُ مسَّ تُويجهنَّ، أو ربما النوارة التي سقطت من لفَّةِ القميص وكبرت في العراء؟ لأبرِّر لفَّ قميصي حول بتلاتها في هذه اللحظات.

حذروني من إصراري عليك. من غيرتهم، يجوز. لكن حين انتقلتُ بمشاريع عزوبيتي وأعمالي إلى الوطن بدأت أفتِّشُ عن وقت أنكِّلُ بهِ أمامَكِ. لماذا؟ لا تسأليني، كُلُّ الرجال ينكلون بشيء لتقويم وجه رجولتهم.

عدتُ إلَى وطنٍ مُطفأَةٌ فيه أضواء الداخل والخارج، حتى أضواء السيارات والمراكب كانت بعيون مظلمة. شعرتُ بأنَّنِي استُدرِجتُ إلَى خَديعةٍ، وكرهتُ الوطن دفعة واحدة. حين تذكّرتُ أيّامَ بصق على فقري كرهتُهُ أكثر. رحلتُ إلى نفسي، ومنها غرفْتُ لوقتي الفارغ ضجيج عواصم نمّيتُ فيها موهبة

تجفيف النبت الأخضر، و.. تجفيفك. من شدة قهري أردت أن أجففه، هذا الوطن القاهر مثلك، بقي أن أعترف أنه قاهرٌ بوضاعته، وأنت قاهرةٌ بكبريائك.

تُرى، لماذا يظل في مدن الإثارة توق ومحور قداسة. لماذا يصبح حين نعود مبغى لا سيادة فيه لغير العهر. ماذا نفعل بالعهر، ولا أسواق مؤهلة تماما لشروطه؟ كان الجلوس في وطن غير معنون يعني الشقاء. بل أكذب، كنتِ هوية وحيدة لكل العناوين الملغية. لم أفتش شقاء غيرك. كان ضوع رائحتك من ذقون الرجال يوطنني بيتا لا أطيقه، وتسلية صارت فروضا وسطور ولاء كاذبة. هل يأتي الوطن إلى الناس أم يذهبون بأعضاء فالتة إليه؟ تدريسه العبث كانت كل ما فهمته عن قانون التواصل به. جدرانه زنزانة لا يفكها مجيء الموت. لا شيء فيه غيرك. كرهته.. كرهته. هل سمعت رجلا يولول مثلي؟ فسّري انتمائي كما شئت، فالحقيقة أنك من أقفل عليّ جدراناً عادَيْتُها كُلَّمَا فَكَّرتُ بأسطرةِ رجوعك. تتوترين مكان الساعات المفقودة؛ حلماً بوجه مشروع اغتراب.

كيف احتملتِ جدراناً هربتِ من إسمنتها كل هذا الزمن؟ رمّلتِها دون سبب. أو لعلك، في المدن الغريبة، مفتاح انتماء وهنا قفل ضياع! كيف حدث للحيطان أن نسيتك، أم أنك من تخلى عن تحصينها لالتماعة ساقيك في وجوه الرجال؟ أهو سر حضورك أن تخلي المسرح حين يصعد إليه محترفوه! تخيَّلتك

امرأة لا تحترف إلا نفسها. خرجتِ من البراويز التي علَّقتِها لقطع جسدك. رميتِني بوطنٍ كُلّه وحدة، ثلجه لا يكف عن كساء البيوت والساحات والشوارع بفصول الشتاء. الشتاء هنا فصول لا نهاية لشهورها. هو من علَّمني كيف أصنع الشتاء لمدن لا يأتي إليها مثلك.

هل اعترفتُ لك أنه لا يتقن غير صناعة العدوى بين الحالات. نقلها إليّ وأنا على معبر رفح حين ثقبني المخبرون بالسؤالات. لا تظني أن العدو فقط يعصر الوطن من الجبين، ويدحرجه بحجم طابة بغ بنغ إلى الحذاء. مخبرو الوطن ووحدة احتياطه خصخصوا هذه الحرفة أيضا. على المعابر ضربتني عدواه. من معبر لمعبر نهشتني الفصول. تشبثت بالشتاء لأنني أعرف أن غضبه لا يذبحهُ، بل يجمِّد العقل فقط.

كنت عائداً رعديداً يجبن من خبر الاغتيالات، ويمتهن على الأرصفة إغواء النساء الجميلات. حّلي المؤقت للبطالة التي هبطت مع طائرة الأباتشي فوق طاولة المشاريع الأنيقة. جعلني الذعر ثياب الجدران العارية وحلة حديثة لأعمدة الكهرباء. أصبحتُ إعلاناً دعائيا مبتذلا، ليس أهم من فروة الكلاب، بل ربما فرواتها الرّاكضة تحت المزاريب جُنِّدتْ عِلماً للمؤامرات، ما لم أستطعه أنا. رأيتُ الرؤوس تسرعُ بين الحواري بلا بطن وبلا حذاء. لمن هذا الوطن، أجترُّ فزعي، لا أفهم من يغتال من، نحن أم الوطن؟

خِفت من يوم تصحو فيه النوافذ قبلي. مثل نعامة مستهدفة، تركت عنقي يبتلع رأسي طمعا في الاختناق. أتيتُ هربا ممن عاقبتهم بك لأقاصص بين حيطان، حتى خواطري عنك كانت غائبة عن عوازلها. لا أحتاج أن أعترف مرّة أخرى أن كشفَ مزاجك نام في جيبي مثل وصفة ضد الصرع، فيه أعلن أطباؤك السريين أنه حلَّ فيك حلول الجن في البدن.

بين الجنازات التي مرت تحت شرفتي أقمت أعراس شتائم. جنَّ الوطن، شجّ رأسه وحلق عقله، وعلقته الأحزاب تذكاراً حول أعناقها. كان أشد ما كرهته في منطق إعلان الوجود هذا، أن يزوِّجُوهُ من أرض غائبة ويبنوا له على مقاس الفقد ذاكرة.

بدأت أمج سجائر وطن غريب، مختل المشاعر، لم أرَ منه غير تلك التعاويذ المضحكة حول الأعناق والكعوب. علبة مارلبورو لايت قضت نحبها فوق طاولة اجتماعات لم يلتئم منها عقد واحدة. عقَّدتني الوضعية السلبية للأشياء. فتشت عن تاريخ لندن بين أمتعتي، المحزَّمة لا تزال، وأُصبتُ بالغثيان. كنتُ عاجزا، مثل كل شيء، لا أملك غير لايت يخرج من بين أسناني بلاك كالمازوت، أطفىء وأشعل به حضورك. جئت لأجلك، فلتمت كل نساء الأرض وليذب سحرهنّ إذا كان التشرد مهرهن، صرخت بهذا، وأكثر، حين قبضت على نفسي محنطا في طابور اليأس. كرهتُكِ قليلا، لكن لا أعرف لماذا حين ألقى

نُوّاركِ المستحي ببتلاته عليّ، جريتُ مثل المجانين إلى صورتك؛ معتذرا عن حمقي وخيبتي. أكل النساء يكشفن بهذه الشفافية خيبات الرجال وهزال وعيدهم؟

بعد شهور عدة، احتلَّت طاولة الاجتماعات ما لم تمتلكيه من تحف وأحجار نادرة، حدث ما فركتُ عينيّ مرارا لأتأكد من واقعيته. وصلتني تلك الدعوة الغريبة، آه لعل عصفورة هاربة من القصف تخلصت منها في حالة ذعر وفرَّت، أو ربما هو ساعي البريد، الذي لم ألمحه مرة واحدة منذ عدت، أسقطها من محفظته وهو صاعد مع مختطفيه إلى الفضاء. سعلتُ، وضحكتُ ألم يعثروا على مسلَّح أقل عدوانية من ساعي بريد يقدمونه قربانا للصباح؟ ما أشد لطفهم مع الطبيعة الصامتة.

مدهشٌ، كيف يسقطون شعورا مجانيا حارا على الأموات، وينزعون الحسّ من الحكايات. انتزاعا بخراطيم المياه، وأحيانا يرسلون إلى الأرواح الطائرات تخطفها بمكبرات الصوت. كل شيء قابل للخطف هنا حتى القطط والجرذان. هما الصباح والمساء لم يحدث أن اختطفوهما دون مشورة الله. يَتُوزُونَ الموت والحياة كما يَتُوزُونَ أزرار البندورة والملفوف من صناديق التجار.

ازددتُ ايماناً أمام كل ذلك أنه وطن دمرت فيه الدبابات المهاجمة أوسمة المواطنة. اقتنعت أنه مختل عقلياً مثل ابن أختي مؤنس. فاجأني على باب البيت بتعليقة ملابس شكَّها في عنقي

وضحك، ثم صفق ورقص «شوفو خالي خزانة.. خزانة». لم ينقذني من بين كفيه العملاقة غير صوت دبابة اجتاحت شارعا جانبيا. عندها حرَّرني وجرى صائحا «أولاد القحبة أجو أخرى مرّة». هو لا ينسى المرة الأولى التي قصّت جسدي أخويه التوأمين، قريبا من باب المدرسة وأتلفت، إلى الأبد، بساتين رأسه الجميلة. لا يكبر في رأسه اليوم سوى جمجمتين ودبابة. والوطن يُحال هذه الأيام حقا إلى خزانة، لتعليق الأحذية والجماجم. نقائض الوجود تتصافح في شوارعه دون خوف من إعاقة. الأحزاب والجنازات، وملابس الأعراس المبلبلة. العرسان والأموات رديفان لنفس الأغنية. وبالونات الأطفال شأن قنابل الأعداء زينة لأعياد الميلاد. نساء الكنادر الملمعة وفتيات الأبواب المخلعة. وأنت يا سيدة هذا الوطن العاهر لا زلت خواطر لأغرب أمنية. شتاء رائحتك سكّرة قصر لم ينزع ختمه أحد. تفرين، مثل النوارس، من يابسة لبحيرة ولا يمد يدا إليك البلل.

فكرتُ أن أمتنع عن المجيء للمؤتمر التأسيسي الموثق في ذيل الدعوة بساعته وتاريخه، التاسع من ديسمبر، كانون الأول. لكن بلغني على لسان الذين يسجِّلون حركات النساء أن نوّار معلّم ستكون تفاحة المؤتمر. لم أسأل لماذا رجال الوطن مغرمون لهذا الحد بالعائلة اللحمية، وعائلة القلوب يدسّونها دائما في جيوب السراويل، لتسلية قصيرة. لم أصحح تصنيفهم العشوائي للتسميات، فزهرة اللوز المستحية كانت مشروع مسائي الوحيد.

قرأت سورة الإسراء على بطء، أو على عجل قبل أن أغادر. لعله تيمنا بما يشبه براقا يصعدني وأنت خلفي إلى وطن، بأجزاء مرتبة في مواضع التحامها. زهقت من الجثث المقصوصة ولون الدم. لم يحدث أن ختمت سورة بمثل هذا الورع. قلت لك: بحثتُ عن بعير طيار يعيدني إلى زهرات اللوز الغافية في جارور شقتي اللندنية، لأعيد تجفيف الورق وأصنّعك على مزاجي. لم أعثر على مكان آخر يحتمل هوايتي غير تلك المدينة الباردة ، فالهواء ساخن جدا هنا، كأمزجة المقاهي والشوارع. ولا تطير فيه غير هواية واحدة، المواجهة.

نوار معلم، ترن العبارة في عقلي كلحن حالم في ناموسية طفل، يفتح نصف عين على ثمرة تندس في فمه على غفلة. معروقة؛ مثل إجاصة تكوينك. أكلّ النساء نوارهنّ لا يذبل هكذا، أم أنك امرأة تجاوزت فصائل النساء! كيف تسمّي النساء أنفسهن دون أن يصرعهن أَلَقَهُنَّ؟ أليس مدهشا ألا يَتَنَشَّقْنَ رائحة نوارهن، ومؤلما أن تخلب عنهنّ عقول عشاقهن؟ ساءلتُ دون توقف أسئلة بلا أجوبة. افتتاني بتبخّرها صلب السحر في أذني. تسلّلتْ إليها فراشات زهر اللوز من الحقول بعد أن أقفيت، عفوا بعد أن موّهك اختفائي. ظننتني غادرت، ودرن حولك درن حلقات. دوختك رفات لهاثهن. كن يداعبنك بدهاءٍ، يذكّرنك بدعاباتك التي نكّلت دون رحمة بالرجال. أوراقهم الذابلة، تحت الغيم أقلّتِها من عينيك وجفّفْتِ بها أطراف تسريحتك المبتلّة. بماذا؟ لا تسأليني. بالقلق، هم أخبروني. لم

يكن لديّ شك أنك حين ركضتِ من بينهم، كسندريلا بعد دقات الثانية عشرة ليلا، مثلها كنت ملخومة ومرتبكة. لكن غير عابئة بأمر واحد، أن تخونك ملابسك وعقد التوليب الفضي الذي سقط، ونعفك في الهواء. لم تخشَيْ أن تستحيل مركبتك المذهبة قرعة كبيرة تتكسَّر بين المطبّات.

أجل بقيتُ متدفئا بالخشب، ما دام الوطن لم يمنح سريراً واحداً، لا يخيف من الضوء والعتمة. لكن إذا شئت الصدق، شعرت أن الوطن بأناسه وأشيائه، قد خرج من عقد التوليب الذي أحاط عنقك، وأشعل كتفي. لو أنك شهقتِ بينهما لفهمتِ ماذا كنتُ بدونك. عاد إليَّ شارعا.. شارعا.. يمشي مكان قدميّ معافى من حالات القتل والموت والأغتيال. رجع بك بحنجرة غير مجرحة ولسان سليمة من الشوه. كيف يعيد الإنتشاء للبدن علاماته مع الحياة؟ هل ولدت قبل الموت، أم بعده، حين سقط العقد الفضي وتركك! لا أملك أجابات على الأسئلة. ولدت مثلك لأسأل فقط.

غرور؟ لا بأس، كالذي يدثره كبرياؤك. خرجتُ حين هجمتْ من بعدك الوحدة. الباحة بدون تسريحتك يا سيدتي باذنجانة مجوّفة. وهذا العقد المنكمش هكذا كابتسامتك، سيصل إليك داخل علبة شوق. كي لا تقولي سرّاق جواهر مزيفة. غريب أن يتسلق التوليب عنقك مكان نوّار اللوز المستحي. مزيف، كعادتك في اختبار نباهة الرجال. لا، لم أستغرب،

لكن كيف خدعت عنقك؟ لم أفاجىء امرأة قبلك بمثل هذه الإستنتاجات. ولم أتعرف إلى واحدة تعشق التوليب لدرجة تخيط به عنقها كجلد أفعى.

لا بأس، أعرف امرأة واحدة زيّنت تاجها بجلد الأفعى ورأسها، كأن رؤوس الكائنات بيعت بمزاد علني، ولم يبق غيره. يقلقني منطق نساء أمثال كليوبترا هذه. ترى من يقرر عنهنَّ، أشدة الحماقة أم فداحة الدهاء؟ لا أعرف، ولم أختبر توليبك، قاني الزرقة، بين ممرات عقلي كما فعلتِ أنت مع سلالِ الرجال. بهياً حالما، تألق مثلما عشت في الأفواه.

إذا كان الاعتراف ملحاً، لم تفكّ من عقد رجولتي المتكاثرة هذه الأيام غير عقدة لساني. لم أكن عنّينا تماما، لكنّي عشت بنصف رجولة لم تغفر لها سمرة بلاد جننت نساء لندن كلها. أملك شيئا يحرق صوابهن، علّقن. كنّ يلقين شهوتهن إلى كؤوس النبيذ، ويبكين. ينتحبن أحيانا، ولا يفهمن لماذا لا أسحق تحت سمرتي غير أثدائهن. شقراء يا سيدتي، مستحية مثل النوار. مثلك حين ترفعين وجهك، مورد الكبرياء، إلى سقف بلا نهاية.

الآن؛ أشد نفسي من خشب سرير لا يدخل لأول مرّة ضمن ممتلكاتي. مريح هكذا، بدون شراشف أو مخدات. ولا زلت ألبسكَ. تمزقين، لا زلت، لهفتي عليك وتلقينها في عيني. تخربشتْ سطور التعريفات على وجهي، وفي عينيّ تعيش الآن نقطتا ماء.

كم كنتِ فاتنة، يا حبيبة شوقي، وأنت تلحقين نفسك مثل بطلات هوليود. امرأتها الجميلة بالذات. هرب اسمها من علبة السجائر، وصورتها أيضا. قصاصة لإحدى صورها، كانت دائما مستلقية تحت الورقة الفضية للمارلبورو. لئلا أنساك في فوضى المواعيد والاجتماعات، مددت لها أسرة رقيقة تحت سجائري. تتشبَّه بك كُلَّما ضحكتِ. ثمة نجمة صغيرة تسقط من عينها إلى سنّها، تسقط عندك من جبهتك إلى عنقك. لا أعرف كيف، لكن توهجها الخاطف يخطفني، دون توقف، إلى أمكنة يفترسك فيها رجال لستُ بينهم. أجالس محرقتي الصغيرة، أراقبك وأوزع غيوم الوحدة. قطعاً لم تعرف امرأة مثلك، يغصُّ خصرَهَا بالأعناق الحمراء، محرقة أو نرجسة.

مشكلتي يا سيدتي أنّني انتسبتُ دون مشيئتي لنوّار غصنك، لا بل أكذب، علِقْتُ عمدا بدوّامةِ رائحتك. منذُ فَرَط التوليب عنقك وانفرطْتِ معه أصبحتِ بطلة لفيلم لم أنتجه. أفكر الآن، جدياً، باحتكار إعادة إنتاجه. وأسطو عليك، أسطو يا سيدتي على عطر قذالك، وأغمد أسلحتي كلها فيه، فعل عصابات الشوارع بغرمائمهم في الكار. أَغريمَتِي أنتِ، أم حبيبتي؟ تساءل، وأخفى همسه عن عينيه. إنها هفوة أولى يسقطها لساني منذ بدأتُ مكاتبتي الغيبية لك. ضوعُ حبق أُحسُّهُ يحبو في فمي، هل تقبلين هذه «الحبيبة» بكل ما تعلنه من لطف وشراسة؟ غدا هو عيد الفلنتاين. القديس الذي أعطى العشق تاريخا وهوية. غدا هو عيد الفلنتاين، هل تقبلين أن أحدده موعدا

لخطة سطوي المزعوم على نورك ونوّارك؟ لا بأس من نفي أنفك الصغير، ومن عمق فجيعتي.

لا يسأل العاشق حبيبته عن رأيها في هَوَسِ عشقه، ولكن من المناسب أن يستفسر لماذا لم تقاوم، وهو يهددها بالموت على فمه أو في قلبه. في عيد الحب يا سيدتي لن أهديك أكثر من نصف رجولتي الأعلى. الرجل النبيه لا يهدي نصفيه إلى بطلة هوليودية؛ يترك لها على باب الغرفة هدية خائبة ويمضي، حتى يسقط توليبها على باب غرفته في سنة الحب المقبلة.

أنت اليوم خطة بقائي في وطن يزداد اغترابا كلما رسمتُهُ بدونك. المكان تكسّر في رأسي مثل منحوتة نادرة. تخيلي رودان بدون قبلة الحجر الصغيرة. ستقولين، لو كان حياً ينجزها ثانية دون مشكلة. لكن الوطن حين يتكسر، مثل الخزف، يصبح ملحا في صحن مرق، وأنا كرهت طوال حياتي شرب المرق. أحسست أن أصوات رشفِهِ مقززة وبدائية. لا عرض آخر أقدمه إليك أول هذا الفجر. سيصحو الفلنتاين قبل الدقائق ويعنون الحياة بأسماء العشاق. قرري سريعا إذن.

قال هامسا، وهو يفسّر خطّته: قفي خلف شارعٍ أحرسُ رصيفه. ركضتُ كل المسافة التي أنستكِ رائحة أَخلَفَها مرورَكِ تُفزعُ المدينة النائمة. أجل، أجل، أنا هو الرجل العاصف. ظل أسود يكتب سطورا على الغيم مقابل نافذتك تماما يقفز ويشتم، يقبِّلُ

الهواء كأنَّهُ أنت، يذبل ويجنّ. يقاتل الشتاء الذي أحبَّكِ. رسم الأشياء تحت المطر بقلم سبّابته. كلما زخّ غسل ما كتب بأسرع من حركات اليد. أحتضن الآن نوّارة لوز أتت مع العاصفة إلي. ما رأيك لو تحلّين محلها؟ صرخ وهو يلمحها حائرة بثياب النوم. حاذري.. حاذري، صرخ، فعقدُ التوليب سيغافلك ويعود إلي. ضحكت، استخفافا، وأسقطت ضحكتها التوليب قريبا من قدميه.

تقدم الظل الأسود كي يلمّه؛ فامتلأت كفه بحفنة عتمة. كانت نوّار لا تزال تستنجد بالنافذة. تسرّح ابتسامتها المنكمشة وتهمس، «لا بد أنه يفرش للتوليب سريرا تحت سجائره»، والرجل ينظر من موقعه على الرصيف إلى أعلى مندهشا. يحدّث قلبه: قلت لكِ، لن أهديك غير نصف رجولتي الأعلى! وحين انحنى ليجمع العقد المتناثر التفّت حول أصابعه خيوط ليف خشن لم يتخلص منه بسهولة.

الملكةُ فكتوريا

كَتَبتْ إليه:

(يا رَيْتَ إنتِ وأنَا في بيت.. شي بيت.. أبعد بيت،

محي ورا حدود العتم والر..يح،

والثلج نازل بالدني تجر..يح.. يا ريت)

التوقيع
سعدة العاهرة

تغيّرتَ وتغيّر الزمن يا جواد. هرم القلب الذي أغلقتُهُ عليك ولم أعد قديسة، أجل لم أعد قديسة، ولا امرأة تتذرذر تحت مزاريب الشتاء لتصل شقتها المنزوعة

من حلق الحياة، إمرأة جرباء؛ يتذمر الرجال من أصباغ وجهها السوقية الفاقعة، وذوقها الرخيص في انتقاء ملابسها المستوردة من البالة، بالة الست أم صبري؛ تتاجر بمخلفات الأموات والملابس التي نفدت موضتها لدى سيدات المجتمع القميئات.

حين تتذكر سعدة هذه الحقيقة، تمعن في احتقارهن ووصف قماءتهن للرجال الذين ينغرزون بين ساقيها المنفرجتين عن آخرهما. وقبل أن تفاجئها الرجفة تكون قد أفرغت قاموسها من مفردات الحقد. لكنّ الخوف الذي بدأ يستولي الرجال الّذين تسرد عليهم حكايا الملابس الفاخرة والأخرى المستوردة من مخلفات الأموات، أصبحت سببا باعثا على القلق. لقد بعثتهم تلك الحكايا من موتهم فجاءوا، وحدانا وزرافات، يطرقون زجاج ستائرها أواخر الليالي الحالكة؛ عراة، يطالبون باسترجاع أرديتهم. هكذا تجلّوا لها في غفواتها القصيرة التي أعقبت خلو سريرها من سراويل الرجال المعطرة.

سعدة لم تعد صالحة للتسلية؛ بدأت تخرف، ليس من المعقول أن نخرف بين ساقيها، ومن لا يخاف الأموات غير هذه السعدة، تهامست السراويل فيما بينها. أصبح الرجل مهدداً بالمرأة الميّتة التي ستخرج فجأة من ملابس سعدة لتقاسمها المضاجعة، «والرجل تعرفين.. يخاف من ظلّه حين يتورط بالشروع في خيانة زوجته، خصوصا، أخطر من خليلته»، تقول سعدة باتّهام لجارتها النورية. «ولا شعوريا يصبح مهددا

من امرأة ستظهر، يوما ما، وهو في أشدِّ لحظاته ألقا في فراش زوجته وتفشي سرّه للملاءة التي تحتضن جسدها فتقرصُهُ بالشّك. هذا الرّجل الجبان سيموت بسكتة قلبية إذ ما علم أنّ امرأة أخرى ميّتة قد تستيقظ فجأة بينه وبين زوجته وتفضح أسراره»، كما حدث لزوج الست أم صبري التي لم تذرف دمعة على زوجها الراحل غنّام.

آآآآخ..يا جواد، كم تغيرتُ أنا وكم تبدلت أنت!خطوط وجهك اخضرت أكثر حول عينيك السوداوين، وأناملك الطويلة تلطخت ببقايا التبغ الأصفر، ألم أحذّرك من إدمان هذا السمّ الهاري، وقلت لك ألف مرة بأنه سيشوِّه تضاريس يديك اللتين تنزان حبقاً ومردقُوشاً، وتضجان بأجواء المدن الجميلة، التي عرفتُها بعيدا عن أوسمتك وَتُرَّهاتك. لم أفهم يوما كيف يمكن ليديك أن تزخرا بكل هذه النضارة الخرافية! اعتدتَ أن تعاند ليس لأن كلام المرأة لا يقنعك، إنما نكاية بها واستخفافا بنصائحها. وما دمتَ رجلا عاقا لهذا الحد سأحرّض أشتال الحبق عليك، ولن أدعها تمور ثانية فوقهما. تبدل ريشك يا جواد، قصقصته الريح واستطالا، كثيرا، جناحيّ. يخيّل إليّ أنّ الّذي سيتحدثُ عنّي مع أشيائك الجديدة هما جناحاي، لا شيء آخر فيّ تعلم كيف سيجرّح احتجاجك سواهما. قد لا تكون أنت السبب في نقمتي، ربّما الزمن الّذي يمنع هذه الأيام الست أم صبري من العودة للتِّجارة بمخلفات الأموات؛ فيحرمني من الفرحة بشراء الملابس الجديدة والرخيصة التي وحدها ملكتني فأغاظتك.

لقد توقف ذوقي عند قميص النَّوم الأخير بألوانه الزهرية الفاقعة، الّذي أقنعتني أم صبري بأنه من مخلفات الملكة فكتوريا. حصلتْ عليه من السوق السوداء بواسطة تاجر ملابس فرتيك، ذائع الصيت، لا يتعامل إلا مع مخلفات الملوك والأمراء. قالت لي: خذيه، ربما يجلب لك السعد يا سعدة، ولا تنسَي، أن تلبسيه بعد الساعة العاشرة ليلاَ حين تطلّ الملائكة من بروج السماء. وطبعا كان باهظ الثمن لأنّه استراح في الزمن الغابر فوق جسد فكتوريا الفاتنة. في الحقيقة لم أفكّر مرّتين، وفي سبيل تأدية هذا الدور التاريخي الصعب، لم أتورع عن دفع رزمة من الأوراق النقدية؛ هي تحصيلة شهر كامل سخي من الوصال مع زبائني الرجال. الصفوة الّتي تواظب على خيانة زوجاتها مرّة في الأسبوع إنعاشا لرياضة المد والجزر تحت الملفات الصاقعة. لكنّي فوجئتُ بتطاير سراويل الرجال المعطرة من فراشي منذ حطّت يمامة فكتوريا على كتفيّ، ولم تشفع لي تلك اليمامة الجميلة الجالسة تزين كتف القميص عند شهوة الرجال.

سعدة الحمقاء؛ يا نورية بارت، ستصبح منذ الآن عاطلة عن الدغدغة والإثارة. «يا ويلك يا سواد ليلك يا سعدة»، صرختْ ولطمت وجهها، «لم تمارسي في حياتك غير الإلتواء، فوق من ستلتوين إذا غاب اولئك الّذينَ ملأَتِ همساتهم وأنفاسهم، المشبوقة بجنون حيواناتهم الصغيرة، غرفتك غير أشباح موتاك؟ حتما سيفرغونك بزيارة جماعية خاطفة من آخر ذرة عقل ويجلدون وحدتك بالبؤس والرَّهبة. أجهشت بصوت

عال، «وقد يستعيدون كل الملابس الفاخرة التي نشف دمك حتى سدَّدتِ ثمنها واحدة بعد واحدة لأم صبري».. ليأخذك الموت يا أم صبري، أي داهية أخذتك ونسيتْ أن تعيدك لغضبي المحتقن عليك، ويوما واحدا بعد أن عثَّرتِ حظي بقميصك الفكتوري؟ يا مشحّرَة وِين تسبّغتِ...وين؟! مُصيبة إذا جاءت فكتوريا تفصِح عن رغبتها باستعادة القميص!

يُقالُ أنَّ شتاءَ القبور أوحلَ منَ الشِّتاء الّذي يُغرِقُ جَزماتِنا وخيباتنا يا نوريّة»، التفتت إليها كأنّها تنتظر رأيها. وستكرس قوائم سريري بلا شك أولا، وتشلّ لساني الممغنط بلعاب هواجس توقظه من هذيانه سنة بعد سنة. ها.. ها.

أيمكن لفكتوريا أن تخرسني، أواخر ليل موحش، وتزجج عيني بالدهشة؟ تتركهما مشكوكتين بدبابيس تاجها الساحر، وتذهب مخلِّفة عينيّ بلا عيون؟ عيناي الشقراوتان، يا جواد، ومعهما قميص اليمامة الذي لن ينجح لساني الممغنط بلعاب الهواجس انتزاع نفسه من شَلَلِه والإعتراض. ولن تبدرَ مِنْ جَسَدِي الممغوطِ لِأطراف السرير هنّة صغيرة. هل تقدر خرقة مترهلة مثلي على مقاومة مشيئة ملكة؟ « لكن يا نورية، يقولون أنّ قلوب الملكات واسعة، وقد يبلِّلُ بؤسي جفنيها بالرحمة. قد تشفقُ على فقري وتشملني ببركة خيراتها. قد توشوش أذني هامسة» تقتربُ سعدة من أذن النورية وتقلِّدُ الوشوَشة. تُلملمُ ريقها بأنفاس متقطعة، وتتابع مسرحة الدّور المُتوهّم، وتهمسُ لي: يا نوريّة.. أنتِ فقيرة يا سعدة، أعرف أنّك لن تطيقي العيش بعيدا عن أجنحة اليمامة، وكرمى للرجال الذين أفرغوا

جيوب سراويلهم من الأمانة والنقود سأتركه لك. ستكون أسعد عاهرة على الأرض.
تقف سعدة أمام النوريّة. تفرد أجنحة القميص الّذي يحتفظ بزاهر ماضيهِ، وتدورُ على نفسها كالأطفال مترنّمة بألحان راقصة لأغنية قديمة. تتخيّلُ لحظة امتلاكها لأجنحة اليمامة، وتصرخُ بنبرة انتصار، كأنّما أمسكت بناصية عالم كبير، «ولتعصف بها وحول الشتاء بعد ذلك». أنا التي شقيت، أنا التي نزفت تحت مقاصل الرجال، وشُكّت بأكوازهم الجارحة، أنا الكادحة الّتي دَمِيَتْ حين جاعوا. أعطت، وبال عليها جشعهم، أبناء الزانية. أنا الفقيرة سعدة التي يبست فتنتها تحت شفاههم الغليظة، مومس، لم تتعلم غير نطق الآخ حين تتوضأ بزغب ندّاهُ النبيذ. آخ طويلة عمرُهَا تاريخ زمن عار من الشرف. ابتدأتها آخ توجعٍ في الكتف على مقاعد الدراسة، كانت بكّاءة، آخ عاوية من قعر مجرّح ومتقيّح.
كبِرتُ تحت قضيب المُعلِّمَة. لم تنجح، لتياسَتِها، بالعثورِ على أدوات أقل إثارة للذعر. آخُ أوّل مرّة أنستها البحث عن مفردة أجمل، آخ أمّها المدمنة، بل عصيّ أمّها كانت أشدّ إيلاما وقسوة. صدّعت جدران البيت، وطيّرت كراريس الواجب من فراش النوم. حين شارفت السنة على النهاية كانت كراريسها بيضاء جدا، بل ربّما أشدّ نصاعة من مخدّات الورقِ ذاته، بلون ليّة عبورٍ طازجة. وَطوال السّنة لم تفتح غير ساقيها تحت رجال لا عدد لهم، كأنّ أمّها تستقدمهم من جحور الغيم كي يزوّدوها بالحبوب الخضراء والكحول المستوردة. ولا تراهم بعد ذلك،

تعيدهم أمّها إلى جحورهم. لكن ليس قبل أن يخرّبوا أقواس فرحِهَا، ويذهبوا.

«من منهم لم يغرز خطيئتَهُ في جسدي؟» شَخَرَ العذاب أمام دموعها. في البداية خافت، ثم بدأت تضحك حين رأت أن الأمر لا يعدو لعبة مسلية تلعبها مرة أو مرتين في اليوم مع رجل لا تعرفه، تراه مرة في الأسبوع بملابس وردية نظيفة، هي السعدة التي لم تسعد بغير ملابس البالة المهترئة. أي سعادة أن يجرِّدها رجل بملابس وردية من شراشيحها، وبعد أن ينتهي لعبهما المؤلم، يخلع عليها فستانا جديداً بياركة أجنبية. الرجال المتسخون كانوا عادة يلعبون مع أمها المتسخة هي الأخرى. تشهق سعدة بعمق، سيظل يؤلمها حرمان أمّها لها من كلّ الفساتين المورّدة. قبل أن يستقر فوق جسدها كانت تسرع إلى فترينة شُكوكو وتبيعه بأوراق خضراء كثيرة. تراها من ثقب الباب تلوِّنُ أصابع يديها.

تعود سعدة المنحوسة لملابس البالة وللّعب مع رجل جديد تستورده أمها مع الحبوب والسجائر المشبوهة، لكنَّهُ نظيف ولميع وبملابس جديدة تفتنها. حين يقعُ عليها تنسى عهدا قطعته على نفسها بالكف عن اللعب مع الرجال. طفلة، أليست طفلة ولا تزال تفرح بالألعاب الجديدة والرجال الجدد؟ تلعب معه كسابقه، لكنه أحيانا يختلف ويلعب لعبا مؤلماً، وسعدة طفلة تعتقد أنَّها غميضة مستوردة أيضا كالسجائر والحبوب والفساتين. حين يؤلمها تصرخ، «لأ مش هيك.. هيك بوجِّع، يلعن أبو اللّعب.. بطّلت ألعب!» لكنَّهُ يقنعُهَا بالإستمرار لأنّ

ملابس جديدة تنتظرها داخل اللّفة البمبة الموضوعة فوق الطبلية التي ستقرفس فوقها بعد قليل لتغسل ما بين ساقيها، هكذا علّمتها أمّها. وحين يغادر تنتزع أمها اللفة وتذهب. حتّى كان يوم قررت أن تسرق اللّفة، وتلفّ بها الدنيا.

لم تسرق اللّفة ولم تضع. كانت الدنيا ضيقة كخرم إبرة، وذمة الرجال وسيعة كورقة خضراء. ويوما ما نسيت أنّها لعبت وكرهت الملابس الجديدة.

ذهبت الأم وظل الرجال، لكنّهم أحيانا متسخون وقذرون، يؤلمون دوما، ولم تعلّمهم أمهاتهم الشبع كما شبعت هي من الملابس الجديدة، وقرَّرَت الإستزادة من بالة الست أم صبري. البالة هي كل ما يناسب صدرها الضامر وخصرها النحيل. أن تلعب مع الرجال مهنة، موهبة لا تتقنها كلّ امرأة. سعدة العاهرة يقولون، لا يهم، لن تتعلم الآن اللعب على الحبل أو في الهواء، أو مع الأساتذة، يكفي أنّها تعلمت كيف تقول آخ طويلة تفرفح أبدان الزبائن وآخات غيرها تؤدّيها وقت اللّزوم، أليست الحياة لعبة كبيرة! وسعدة أدمنت اللعب مثلما أدمنت أمّها الحشيش والماريخوانا، «يا غُلبِك يا سعدة.. إذا تراجع الرجال عن الخيانة، بماذا ستبلّين الرّمق؟ أكان يجب أن تحدثيهم عن مصائرهم المؤجّلة؟ أكان يجب أن تُطلِقِي موتاك إلى حقول أرواحهم الجبانة؟ وين تْعَثّرتِ يا أم صبري، وين من غلبي وِعْفَارِي؟

ابتسم قلبها بين طحالب عينيها، ورقص ضوء ضئيل على نقوش الزهرية مجرّحة العنق، وتمتمت روحها، لو تتجلّى

القديسة فكتوريا وتفرغُنِي من آخر ذرة عقل، احتدَّت عيونها بعمق مفاجئ وأرسلت نظراتٍ تائهة لكن ثاقبة، وحَلُمَت.. حينها يا جواد سأصبح قديسة. سيختلُّ عقلي وأهذي، كالكاهنات اللّواتي ملّكْنَ حياة القاصي والدّاني في الأزمان الغابرة.»لو أنّها فقط، تفرغِنُي فقط». ومرّت سريعا تحت رموشها وجوه الرجال مستطيلة ومعروقة وراجفة، «فأرتاح أيضاً من سراويل الرجال».

ترتاح اليمامة فوق أكتاف سعدة وتتوسل. سأهذي كالكاهنات وأعود قدّيسة يا جواد، وستحبُّ حتى جرابي المبقورة وحمالة نهديَ المنتوفة، وأفِجُّ تحت فمِكَ خواتمَ جَسدِي لِتذهبَ طليقاً إلى الموضع الّذي يُهوِسكَ فيّ. وأُصبحُ قِدّيسة تتذرذرُ تحت مزاريب آلشّتاء ولَعَناتِ السَّماء لِتعثُرَ على شقَّتِها. جديدة ستتجلّى في ثياب مدينة لا تعرفُ غيرَ آلَّلعب. كم ستتغيَّرُ حينَها يا جواد؟!

وَرَقَةٌ من مُفكَّرةٍ ضَائعة

حبيبي سعيد

صدّعتُ رأسك بحماقاتي وهواجسي، ولا أندم، بعد أن هرّبتْ خياناتك المتكررة الزمن الجميل من فراشنا وأكياس الرمل التي بتنا نحملها في أرواحنا مكان القلوب. لم أعد قادرة أكثر على الغفران. مرة مع بنت الجيران، وأخرى مع سكرتيرتك ناهدة؛ ذاتِ الجسد المشتعل بسمٍّ أفعى، ومرة مع فطيمة؛ خادمة أطفالك، وأخيرا معها صديقتي سارة. ومرّات أخرى لم أَعرفْ عنها غير أحمر الشفاه قابضا على ياقة قميصك، أو ربطة عنقك، ورائحة التوكاديللي يعبق بها شعرك. أجل لم أعد قادرة على الرحمة، ومن النادر هذه الأيام أن يمرّ يوم دون أن أفتعل مصيبة تشحنك بالحقد والجنون، وتدفعك لشتم كل ما حولك. الحياة والناس والساعة الّتي زوّجَتْكَ بي، يبدو الوجود أثناءها حائلا ومقززا كسُبابِكَ، وعاجزاً عن تحريك دم الصمت الذي يلفّ عزلتي برغبة عابرة.

ولو أن الأمر لم يتجاوز المحتمل لسكتُّ. لكن حين بدأتَ تحرّرُ سأَمَ حذائك ببطن قطتنا المسكينة اعتقدتُ أنّ الأمر

أخطر مما توقعت. غريب أن تنسى تعلّقك بها، أنت الّذي جلبها كي تسعد طفلتنا رغد. أيام شهورها الأولى كنت تحبو خلفها مثل الأطفال لتعلّم الطفلة أساليب المداعبة. تضحك وهي تراك مثلها تمشي على أربع فتضحك معها، وتموء القطة وتحرّك ذيلها الأحمر يمينا وشمالا من شدّة الفرح. اليوم حين تداعبها بقسوة لم تعتدها منك تخور وتزعق ألما لا يحرِّكُ ساكِنك. تبكي الصّغيرة وتملأ البيت صراخاً، فتمضي إلى شمّاعةِ الملابس، تنزع معطفك وتذهب، كأنّها ابنة غيرك الّتي تزحف خلفك. لكنّي للحقيقة أحمد الله، دائماً، لأن في بيتنا قطة ملء جسمها، أوقات الأزمات، هدفا لتفريغ الحقد.

أكُنتَ تعتقِدُ أنّي قادرة على التبدل بين يوم وليلة؟ ربّما. ولربما دهشتي من تفاصيل الحقائق، الّتي عرَفْتُها، عبر مكالماتك الهامسة، فاقمت أزمتي وجعلتني امرأة فوضوية، نكدية وهستيرية الغضب. أتجشأ فرقا من وجودي الناشز معك تحت سقف بيت واحد. لقد هرّبت الخيانات الكثيرة، وإلى الأبد، زمني الجميل معك. هل تفهم معنى أن يهجر زمن امرأة؟ حتّى لا أخذل ضيق أفقك سأذكّرك.

لم يبق كلامي أجمل من حديث الشتاء، حين ترتجف سماء دمشق بحباته الكبيرة. ليس أرشق منها وهي تكتسح طرقات أحيائها الضيّقة. هل تذكر، أم أنّك تحتاج من يذكّرك؟ لن تفهم لأنك رجل أحاسيسه من تبن وتراب. تضاجع الخيانة، في اليوم ألف مرّة، وتعود نظيفا نضرا وبريئا تضحك مع عيوني، وهي

تنظر إليك غائبة عن وعيها، تُراجِعُ آخر ليلة عادت مشيتك بدونك. تستذكر اللحظة الّتي طارت خصلات شعرك الدقيقة فيها إلى النافذة وتخلّفتَ عنها. لا أعرف من تخلّف عن الآخر، لكنّها ألقتكَ بعد أن ذهبتَ تراقب النجوم إلى تعليقة الملابس. لأني امرأة معجونة من مفردات الشوق، لا يمكنُني أن أخونَ جرابك مع جراب رجل آخر. سيفضحني معه جوعي لفمك وحصيد جسدك، لستُ بعلا لأجيد العيش في كل مناخ.

أعيش مواسم من الوهم الصفيق، تقولُ، حين حاصَرَتْكَ أسئلتي، وبطريقة ما أُغرقُكَ فيه. أنا مثل حوّامة؛ أبتلعُ ما يحيطُني وعصيّاً على أحد أمر ابتلاعي، تقول. أعترضُ لأنّي لا أريدُ أن تذهب مع السفاهات حتى آخرها فتفقدني وتفقدك. أحاول أن أفسّر نفسي، كامرأة ناضجة كما تحب عمّتك، فتهزأ منّي وتضحك.

أنا، لا أزال، برغم النجاحات الّتي حقّقَتْهَا شركةُ المقاولاتِ الّتي أتولى إدارتها، امرأة ككلّ آلنساء اللواتي يعرفهنَّ رجال؛ قليلة العقل وسيّئة الفهم. لو أمكن أن أعرف مصدر هذه الثقافة الفاسدة الّتي يدرِّسُها الرجال عن الرجال، لبررتُ مواقفهم وبرّأتهم من تهمة التواطؤ مع الحقد على أنفسهم. لكنّ معظم الرجال مثل الطفيليات يحبّون الإلتصاق بما يغذّي عنهم بقاءهم. ولو كان مصدر الشيء أكياس هواء.

أغار عليك؟ ليس بالضبط، لكن من قلبي حين يلتاع، ويريدُ

أن يفرَّ إليك. ليتني أذكر شيئا عن التوقيت الزمني الّذي تسللتْ منه هذه الأفكار اللّعينة لدماغك وتنفست. في البداية ضحكتُ، وهمست لنفسي بثقة، لعلّه يقلّد رجلا همجيا في فيلم رديء، لكن ضحكي أخذ يوهن ويصفر، والأيّامِ القليلة اللّاحقة أعدمْتَهُ تماماً.

بسرعةِ الضَّوْءِ أصبحتَ رَجُلاً غريباً أكادُ لا أعرفُهُ، وأصبحتُ أنا مجرّد جارية؛ وظيفتها تربية الطفلة، وإعداد الطعام للسيّد الذي سيأتي ليقلب أثاث البيت بأقدامه المُتربة، ودماغها بسُخطِهِ واتهاماتِهِ. وأصبح زبائني من الرجال ألدّ أعدائك لسبب لم أفهمه. حتى الحب، الذي مارسناه بشغف وموت، استحال الى وجبة تريد أن تتناولها يوميا في مواعيد مزعجة، غالباً ساعات ما بعد الظهيرة لتفسد عليّ عملي ما أمكن. بقسوة تأخُذُني، وتؤلمني، حتى خيّل إليّ أن الإيلام أصبح في اعتبارك هواية تريد أن تبدع فيها، ما أمكن، حين تتناسج في خنادق جسدي. أحيانا أنزف وأحيانا أُستنزفُ، لكنَّ ما كان واضحا أنَّ الجنس بيننا أخذ يفقد حميميته. بات واجبا أمقته، ولم يعد سهلا أخذه لأنّ من عادة البشر أن يمنحوه، وبسخاء.

معارك حامية الوطيس دارت بيننا، أشبه بصراعات ثيران على خلفية التمرد الذي شننته عليك. لن تلمسني، صرختُ، لكنك لم تبال بصراخي ولا بتوسلاتي. كنتُ أبكي وأرتعد، وكنت تزأر كوحش بري، لم تشفق على ضعفي حين رأيتني هشّة. منعتَ، بصلافةٍ، يديّ المرتعدتين عن كساء

عربي. كنتُ بثياب ممزقة فاقدة العقل، ممزّقة الكرامة، وبلا كبرياء، وأنت بكامل جبروتك!! وخفتُ ربّما لمرة أولى خفت، من البريق اللئيم في عينيك. ثمّ قررت، وأنا أرسل نظرات مذعورة إلى عينيك أن أواجهك مهما كان الثّمن. حين اقتربت كتفَكَ من عنقي غرزتُ أسناني في حبّة التّوتِ الّتي تتوسط قمّتها، كم مرّة قبّلتها وانتشيت!

أردتُ أن تفهم أنّني، أيضاً، ذئبة شرسة حين يُعَضُ كبريائي. صرختُ، ويبدو عندها فقط فهمت أنني غير المرأة الّتي توقعتها. تراجعتَ حتى أقصى الغرفة وأقعيتَ على جرحك. كنتُ لا أزال أبكي وأرتجف؛ امرأة في أقصى درجات انهيارها. التقطتُ أنفاسي بصعوبة، وانقصفتُ في بكاءٍ مرير، «اذا كان الحيوان فيك جائعا فاذهب الى سارة كي تشبعه، لقد رأيتكما معا في قهوة هوجو البارحة».

أحسستُ من ارتباك رموشك في العد أن لكلامي وقع الصاعقة عليك. لم تنبس بحرف يتيم واحد. والحقيقة أنّها كانت صدفة مخيّبة، كان يوم خميس يعرف أنّي على موعد هام برجل أعمال بريطاني في المكتب، لكن غياب السكرتيرة أوقعني في مشكلة سبّبها نفاذ القهوة منذ أول أمس. لذلك اقترحت على الضيف أن نذهب إلى قهوة هادئة في طرف العاصمة دمشق، ولم يخطر ببالي للحظة أن زوجي الواقعي جدا قادر أن يكون رومانسيا أحيانا، فيبحث عن مكان شبيه قهوة هوجو.

كانت قهوة متواضعة، لكن جميلة، وبناؤها الشّامخ على النمط البيزنطي يأخذ لبّ الزبائن، السيّاح منهم على وجه الخصوص. اجتزت قوسها الواسعة ومضيتُ باتّجاه الدرج وخلفي الضيف. فوجئتُ، لتعاستي، حين احتلّت قدمي أُولى الدرجات اللولبية، بسالف زوجي الطويل معلّقا في المقطع الهوائي المقابل لعينيّ. بردتْ ساقِي، والتوت قليلا أَصابِعُها. رأيتُهُ يجلس في زاوية منزوية داخل القبو الطويل، الجزء المعتم منه على وجه التحديد، يتجاذب أطراف حديث فهمت من انغماره بنفسه أنّه ذو شجون. قبضتني بلبلة شديدة من مرفقي أولا، ثمّ حنجرتي حين ميّزتُ ملامح صديقتي القديمة، سارة، أمامه. وهمستُ، بارتياع، كأنّها مرّة أولى تنكّل بيَ الحياة على هذا النحو، إذن هي على قيد الحياة ولم تمت كما اعتقدت. شهور طويلة انقطعت أخبارها، لم تُجْد خلالها محاولاتي للعثور على أرقام وجودها. تحت الخلفيّة الّتي أضاءت وجهها ظلّ القبو أمامها غارقا في ظلمته. كانت تغمض عينيها بانسجام عجيب زغلَلَ حول عينيها ضحكا أملس. خيّل إليَّ للحظةٍ أنّه يتسرّب إلى السّقف الدّائري وينقسمُ إلى أصداء عميقة الإيقاع. لم يكن ضحكاً، بل إيقاعاً شفافا لرقصِ الرّوح في عمق الجسد. كان يلحق بعضها بعضا فزِعاً من أنفاس الهمس الّذي تدافع إلى ثقوب رأسها.

لم أتمالك نفسي، استدرتُ حالاً وتركتُ قَدَمِيّ تنمسحان بنقوش البورسلين اللامع. لمحتُ وجهي تحت الحذاء مغبر التقاسيم،

نحيلا أكثر مما اعتدتُ أن أراه. غيرَ أنّي لم أترك للغضب متّسعا كي ينفذ إليّ. رسمتُ ابتسامة ساحرة على شفتي، وانكفأت مع ضيفي أمام إحدى الزهريات الخالية من الزينة. في آخر البهو العلوي للمقهى، حيث جلست، لم أسمع غير عويل خافت لمعشوقة تركها حبيبها مع طفل غير شرعي وذهب مع غيرها.

كنتُ مشتّتة، تماماً، وأنا أصغي لشروحات الضيف المسهبة عن مشروعه المستقبلي. لقد بدا صوته داخل التشتت، اللانهائي، مجرّد جعجعة عائمة في بحر نازف الموج. كنتُ مشغولة بمستقبل الطفل الّذي سيأتي إلى العالم بدون أب، وباللّقب الجديد الّذي ستخلعُهُ الدّنيَا عليَّ. ضيفي اللّبق لم ينتظر طويلا كي يكتشف أنّ سحري ذَبُل، وخداي سقطتا أمامي على الطاولة، وبأنّ ضحكتي المجلجلة ليست إلّا طُعما فاسدا أصطاد به ذهولي. علّقَ قائلا، حين لاحظ ضياعي: سيّدة ريم، أرجو ألا أكون قد أثقلتُ عليك بكلامي. اعتذرتُ ولجلجتُ، وأنا أحاول التماسك، «إطلاقا سيّد ريفيو، صداعٌ خفيف، وحسب». لكنّ الحقيقة أنّ الشيطان كان قد أطلق زفرةً زَنِخةً في بدني وأجهز على مكيّفات عقلي.

انفضّتِ الجلسة بعد فنجان قهوة سريع، واتّفقنا على لقاء جديد. تحاملتُ على نفسي حتى دخلتُ المنزل، في حي الغابسية، وجريتُ إلى أقرب حوض أستفرغُ فيهِ حقدي على زوجي وقرفي من الدنيا.

حين عاد بدا سعيدا ولطيفا. اقترب مني وقبّل جبهتي ثم عرض عليّ سيجارة فرفضت. مدّ يده الى صدري يداعبه فصددته؛ بعنف. وإذّاك فقط، أحسّ أنّ الماء البارد الذي اعتاد أن يغسل به قلبي ووجهي بقذارته آخر الليل يبلل الآن حتى سرواله الداخلي. بدأ جبينه يتفصّدُ عرقا، وبدأتْ تتفاقمُ أزمةَ قَرَفِي مِنْ دورِ التِّلميذِ الرّاسب في إمتحانات آخر السنة.

انتحى جانباً فوق مقعد القش، وأخذ يدخن بعصبية. حرق ما يربو على عشر سجائر، خلال دقائق، وأنا أراقبه بحزن مستسلمة لعصابة الألم الّتي تهتِكَ عَرْضِي. هذا الرجل الذي يحرقني حرقَهُ، ذات يوم، عشق جارف لعلامة الحسن التي حبلت بها وبي أُمّي، وربما لم ينج هاتف واحد في ساحة العاصمة دمشق من لهفة أصابعه وهي تمرّن أرقامي فوق أقراصه غيباً. كنتُ إذا اختفيتُ فجأة، ولم يتبق من رائحتي غير منديل ناعم أزرق، يعتقد أنّ العالم بسفنه وبحاره وأقمشته، الناعمة والخشنة، تلاشى أيضا.

كان مثلي؛ نكديا، يهوى تمزيق الأعصاب وفرقعة بالونات الغيرة فوق رأسي، ليحرق روحي. أرهقني وأرهقته. ماحكنا بعضنا، طويلاً، قبل أن نتساقط كالفَراش في شباك الأشواق المدمِّرة. تُرى، ماذا أبقى في قاع جرابه من ذلك العشق؟ «كل علاقة تتغير بعد الزواج»، ردّدَ على مسمعها، «ولستِ أفضل من النِّساء الأخريات». بلى يا سعيد، وأنتَ تعرف جيّدا أني غيرهنَّ. منذ متى؟ لا تذكر، بدأ ينسى أو

يتناسى كل مناسبة تحبُّها، ويكفّ عن مفاجأتها بالعطر الذي تنتظر، والكلام القادر على إشعال أطراف أذنيها وكينونتها.

من الجائز أنّي أخطأت حين التفتُّ، بلا مبالاة، لغضبك واستغرقتُ أكثر مما يجب في ضحكي وطيبتي. وصاحبة نوايا حسنة لا تملكها كل امرأة تعرف بأنّ برنامج زوجها اليومي يحفل بأسماء نساء وهواتف يضيع بينها اسمها، لكنّي كنتُ حينذاك أعزّي نفسي مذكّرة، «ليس مهما أن يكتبني في إحدى حافظاته ما دمت محفورة في عمق قلبِهِ» ليتَكَ لم تصمت حين واجهتُكَ باسمها، ليتك كذبتَ أي كذبة بيضاء وأطفأتَ كلَّ الهواجس الثَّقيلة آلَّتي خنقَتْني. هذا الضيف المقيت، منذ عشّش في زوايا غرفة النوم استفاقت الذاكرة، للأبد، ونكشت مجسات العناكب خلايا رأسي المتورمة دون كلل، حتى شارفتُ على الانهيار.

ومن شدة التفكير الخاطئ، ربما، أردتُ أن أوهم نفسي، وأقنع وهمي أيضا بهذا الخطأ. لئلاّ تقتلني الهواجس وأتمادى في لعبة الشك.

أجل، لا أثق بك يا سعيد لكنّي بدونك قد لا أعيش، وربما لن أكف لسنين طويلة عن تصديع دماغك بكلّ ما تكره، ذلك لأني لا أكفّ عن الحنين. ولو أنك كذبت لشوّهتَ شُكُوكِي وفرّحتَ قليلا نواميس كبريائي، ولم تخرجا يديّ مساءً إلى سوق البطالة خاليةً من ثلجِ يَديكَ وَشتاءِ رَغَدْ على صدرِي لا تَحرُسُهُ سِوَى عجينةِ القمر.

(انتهت)

الفهرست

1- إوزّات سعيدة 7

2- الصُّندوقة 15

3- فراشةٌ صفراء 23

4- الباهرة 31

5- محاولةُ اغتيال 45

6- أشواقٌ نازحة 61

7- امرأة جميلة جداً 75

8- الأبيض 93

9- حُلمٌ إمرأه 107

10- التُيُوليب 111

11- الملكة فكتوريا 131

12- ورقةٌ من مفكرةٍ ضائعة .. 141